بسم الله الرحمن الرحيم

أوجاع الدمى

بدرية العبد الرحمن

الإخراج الفني :
نواف الشطيب

الطبعة الأولى
إصدارات | 2010 - 1431

ص . ب: 245430 الرياض 11312
المملكة العربية السعودية
ت / 2296754 – 2294873 تحويلة 110

الناشر
وهج الحياة للإعلام
Wahj Alhayat Communications

© جميع حقوق الطبع محفوظة
© جميع حقوق النشر محفوظة

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب؛
أو نقله في أي شكل أو وسيلة،
سواء كانت إلكترونية أو يدوية أو ميكانيكية، بما في
ذلك جميع أنواع تصوير
المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو
أنظمة الاسترجاع،
دون إذن خطي من الناشر بذلك.

No part of this publication may be
reproduced, stored in retrieval
system, or transmitted,
in any form or by any means, electronic,
manual. mechanical, photocopying,
recording, or otherwise
without prior
written permission of the publisher.

أوجاع الدمى

الرياض..

١٩- ٠٩- ٢٠٠٥

القواطي..

1

صوت الحجر يشق سواد الليلة المختمر بغبار لا ينتهي..

وفي هدأة من خجل العراء ونشيش السيارات العابرة من بعيد..

يهوي الحجر بسرعة مرتبكة.. يعبط مزيداً من العلب..

تتكوم في ذيل كيس أسود بالٍ في انتظار علب أكثر تضغطها لتساوي عشرين ريالاً..

- (اخلصي علينا يا بنت...).

يجاوبه صمت مبرقش بحفيف النفايات.. وقرقعة مزيد من القواطي تقذف باتجاهه، حيث يهوي حجره بلا توقف..

تقفز الصغيرة من النفايات وهي تركض باتجاه حجرها.. تعجن مع شقيقها بعين دامية.. الشيء الصغير في داخلها لا يكفي لأن يجعلها تفهم.. لم ينجلِ سوادها عن بياض أسنانها كل لحظة.. وهي تعزف بحنجرتها بصوت خافت شارة مسلسل تلفزيوني رأته ذات غفلة..

ترمق أخاها وهي تمص قطعة الحلوى البرتقالية.. مثلما يرمقها بعين السخط وقلة الحيلة وهو بين القواطي.. فمستقر بين يديه والحجر.. ومستودع بين الحجر والكيس..

يتكئ على يدين مغبَّرتين وهو يمتخط ويبصق ويزيح آثار الغبار على أنفه..

وبين يديه ستون ريالاً هي قيمة ليلة كاملة من التنقيب والعجن.. وثلاثة أكياس مترعة بالصفائح المعبوطة..

ما الذي يدور في عقله المراهق غير الستين ريالاً التي سيسلمها لعائل مغبرّ الأردان في بيت من الصفيح؟

هل ترى تملك الأحلام الجميلة أو القبيحة أن تعبر عقلاً مراهقاً نفخته روائح النفايات والتراب.. مثلما ملأت انبلاج فم شقيقته المتسخ القبيح؟

حيث تمددت بقايا البرتقالي على لثتها وأسنانها..

التي لا تكف تنبلج كل لحظة..

تعلن وجودها في ستارٍ كل ما فيه أسود..

وهكذا كان يسخر بها.. حينما يخنق وجودك عتم الليل فابتسمي.. وسأجد لك طريقاً عبر وميض أسنانك..

مزّق سكون تفكيراته هتاف أجش غليظ..

- يا ولد.. من هناك؟

يقفزان.. بقعة كبيرة من النور تجري باتجاههما.. وخوذات تهتز فوق رؤوس متحفزة..

يجريان.. يمسك يدها وهي لا تزال تبتسم وتركض معه..

الخوف يلطع تفكيره كل مرة.. يلتفت باتجاه أكياسه السوداء وهو يركض..

يركض إلى أين..؟ هو لا يدري..

في كون يمتزج فيه الجوع بالخوف.. بألا يفهمك الناس..

الأفضل لك ألا تدري..

وهكذا انفلتت الصغيرة منه وصفق حفاء قدميها على القار النظيف يوحي بأن الأمن قد ابتعدوا..

لا شيء سيسلبني ستين ريالاً..

وبين مجموعات التشجير النظيفة أغلق فمه وعينيه حتى يستر الليل منه ما أمكن..

رآهم من بعيد يصوبون بنادقهم الساهرة باتجاه أكياسه..

يفعل أحدهم شيئاً ما.. يضع شيئاً على أذنه.. يقول كلاماً ..

يدبّون حول الأكياس في تحفّز.. وحذر.. وشيء من خوفٍ قليل..

يقترب أحدهم ولوهلة بدا أشجع القوم يحرك الكيس ببندقيته..

أهه.. يطلق ضحكة عالية.. صوت قواطي!!

قواطي؟؟

يفتحونها..

تتعالى صوت الضحكات.. حقون القواطي.. حقون القواطي..

يبتسم بين الشجيرات ساخراً.. يبتلع مذلته مع عرق تصبب باتجاه فمه..

ثم يغلق فمه وعينيه..

لعل العيون الساهرة لا ترى من وميض أسنانه ما يفضح وجوده..

يبتعدون.. وهم يقهقهون..

يعود أحدهم ليرفع كيساً وينفضه بعنف.. ثم يهرُّ ما فيه في بطن النفايات..

يفعل بالاثنين نفس الشيء..

يركبون سيارتهم ويمضون..

تنبلج ابتسامته أكثر وهو يركض باتجاه مقلب النفاية الكبير..

يقفز داخله.. يسبح..

يغوص..

يغوص..

يقهقه..

قواطي.. قواطي!!

الرياض..

٠٩- ١١- ٢٠٠٥

خشبر العقل..

2

دارت عيناها مرة أخرى بذات الذهول منذ ألف وخمس مئة ثانية..

هناك، حيث طفلة بجوارها تتلمظ في انتظار حلمة .

وجه أمها المتخشب بالارتياع .. لا ينفك يغرس في عينيها المذهولتين للمرة الألف بعد الألف..

لا شيء أقسى من الانتهاء..

حقّاً لا شيء أقسى !

****

كانت رحلتهما لسنغافورة حديث الحاسدين والمحبين معاً..

وأصحاب العيون وأصحاب القلوب والألسنة معاً..

كانت قد خرجت من ولادتها لابنتهما عروساً جديدة بقوام ممشوق صقيل لم تزده الولادة إلا تورّداً..

مثل التفاحة.. هكذا كان يقول وهو يقضمها بلا هوادة..

بكل شيء فيه سلب عقلها وفّر ابتسامة سعادتها إلى حيث لا حدود للسعادة.

لم يتطلب الأمر أكثر من أيام حتى اكتشفت أن للسعادة حدوداً.
كالأغلفة الجوية حين تخترقها الأجرام السماوية باتجاه الأرض.
فتحترق، وتموت!

****

لم تكن تحير جواباً وهي ترقد فوق فراش الذهول.
حين وصلت ورقة الطلاق غير المفهوم بعد سنتين من السعادة المسرفة.. كان الأمر أكبر من أن تتحدث فيه.
أو أن تجري فيه بعض المباحثات.
كان في عقلها كل شيء ليس مفهوماً، كل شيء لم يعد مفهوماً.
ولا حتى تلك المواءات التي تطلقها الصغيرة بجوارها.
ولا الأصوات التي تنطلق من الشفاه المستديرة التي تتحرك وتتحرك بلا توقف حولها.

****

«الله يلوم اللي يلومها»
وتتكوم الدعاوى الفائحة الألم باتجاه السماء.. أن يرسل الله عليه ما يمكن أن يكفّر خطيئته بحق عقل عاشقة.
استعد أبوها أن يركع تحت قدميه ليعود إليها
فقط ليعود عقلها.
ولأنه يدرك فداحة فاحشته لم يكن ثمة خط للرجوع.
هناك من الخطايا ما لا يمكن التوبة منه.
وهناك مما ينكسر ما لا يمكن إصلاحه.
وهناك من الأخطاء ما لا يمكنك أن تفهمه.
وأقسى الأخطاء لعمر الله.

هي تلك التي لا نفهمها.

****

سنتان ونصف.. تمضيان في سرير الذهول..

العينان هما العينان..

والدوران هو الدوران.

والطفلة تتلمظ هي نفس الطفلة..

وجه الأم المتخشب هو نفسه.

يقترح أحدهم أن يغير هذا الحال البئيس بصدمة عصبية أخرى.

فلنقل إن ابنتك قد صدمتها سيارة.

إما أن تخرج من عنكبوتتها..

أو أن تموت..

الأب يرفض ذلك.. لا شيء سيرد قضاء الله..

يريدون أن يردوا لها عقلها..

يريدون أن تعود..

كيف تعود؟!

ومن قبل قالوا إن الحبيب للعاشقة خشير العقل..

فإن ذهب ذاك

فأنى يبقى العقل؟!

****

نسيت أن أخبركم أن هذه القصة روتها لي جارتنا (عن) قريبة من قريباتها.

****

وتقول جارتنا إن الفتاة ماتت بعد سبع سنين.

هذا ما تقوله.

****

خشير: نجدية دارجة تعني (شريك).. يقال في المثل: من خشرت برجلها خشرت بعقلها.. أي من شوركت في رجلها شوركت في عقلها..

برايتون

٠٨- ٠٥- ٢٠٠٧

الصفرة..

3

(قصة البطلة حقيقية)

أبتسم.. الآن.. نعم..

أنا.. أبتسم..

السماء بيضاء.. كل شيء يتوقف في هدوء.. كما تمنيت له أن يفعل منذ عرفت نفسي..

في روحي لذة الرضا.. وطعم الاخضرار يفيء من روحي وإليها..

وإن كان يئز فيها كثير من رعشة الألم.. ألم انتهى..

لقد متُّ.. توقفت حياتي قبل قليل..

هاجرت روحي إلى حيث الرحمن الرحيم..

وكنت قبلها.. فوق الأرض أعني..

كنت فيها أدعى.. صالحة!

****

ساقي بأكملها هي التي تؤلمني هذه المرة.. كما لم أتألم من قبل.. وكما لم أضرب من

قبل.. ضربتني وآلمتني.. ومنذ أكثر من ثلاث ساعات وفخذي وساقي لم يبارحها ألمها..

عرفت نفسي أتألم منذ ميلاد ذكراي الأولى فوق هذه الجبال..

كان يفترض أن تكون أخت أمي.. خالتي.. كافلة اليتيمة التي يحسدها الناس على الـ(أجر) العظيم الذي تحصده كل يوم أمضيه في عشها المزدحم بعشرة أطفال يكبرونني ويصغرونني..

لم يعرفني أحد فوق الجبال وداخل العش الكئيب غير طفلة تنوء بالذعر..

عينان مرتعشتان ذاهلتان كل لحظة.. في انتظار نهرة غليظة من أحدهم.. أو زعقة مبحوحة من إحداهن..

أعرف أن كثيراً من الأقاصيص تصلح أن يكون مكانها مسلسلات التلفاز أو منتديات الإنترنت (التي عرفتها قبل أن أرحل) .

لكن قصتي كان مكانها الحياة.. هذه الأرض التي عليها تمشون وتتنفسون الآن..

كنت فيها ذات يوم.. وكنت تلكم التي تكنس الأرض بمقشة اليد الأطول من قامتي الضئيلة المختبئة في قميص أزرق طويل يكحت الغبار..

ليتشكل على حافته خريطة طويلة ممتدة يسليني النظر إليها وقت الفراغ.. حين تغادر خالتي البيت أعني..

هي لم تكن سيئة أو شيطانة كما قد يخيّل لكم.. هي هكذا.. كلما انفجر بارودها كل مرة في وجه زوجها أو الدلاّلة أو الخالات (كما كنت أشهد بنفسي..)

الكل كان يردد.. هي هكذا.. خلقت هكذا..

صقرة.. حارّة.. دمها حار.. تحب النظافة.. تحب الفخر.. تحب المدح.. تنتفخ أطراف أنفها الحاد بشكل يجعلني أزدرد لعابي الجاف حين تسمع كلمة امتداح ما..

ومن ثم يغلي دمها لمزيد من الأمجاد.. أكثر من كافلة اليتيمة..

لم يكن لديها وقت لتنظر حتى في وجهي فيما بعد.. حين أصبحت (امرأة بعدما بلغت

الثامنة..

قيل لي إنها حينما أصبحت كافلة يتيمة بعدما توفت أمي وأنا أخطو في سنتي الثانية..

كانت رغبتها في الدعوات الحارّة لها تزداد كل مرة تغرس مشطها الأسود في شعري (الأكرت) الجاف.. تمزقه شدّاً وترتيباً حتى لا تكاد تنطلق منه شعرة..

تواسيها الخالات بأن تنتبه لبطنها المتكوّر أكثر مما تفعله وتبذله لبنت كبيرة مثلي..

أرفقي بنفسك يا عزة.. البنت كبيرة..

في حين تلفت إليّ بفتحات أنفها المنتفخة نشوة.. كما تفعل حين تنتشي دوماً..

تربت على ظهري الذي دقّته بقبضتها المكوّرة قبل مجيئهن حين حاولت تخفيف شد البكلة الذي مزّق مقدمة شعري..

لا يدوم إلا وجه ربك.. أجرك عظيم يا عزّة.. الله الله في اليتيمة يا عزّة..

تكبر وتساعدك إن شاء الله يا عزّة..

الحق أنها لم تنتظر حتى أكبر حين وعيت نفسي..

وجدتني كما أرادتني وأرادني الكل.. (مرة) قبل أواني.. قبل حتى أن أخطو باتجاه السادسة..

هكذا الحياة..

أهل الدنيا.. الذين تأتيهم الدنيا كما يريدون.. لا يفهمون منها كما نفهم.. يفهمون منها ما يأتيهم.. لأن ما يأتيهم يجيء برغبتهم..

أما أنا.. والذين مثلي يختبئون في شقوق الحياة..

يرقبون.. بعين واحدة واجفة..

يهب علينا منها ما نريد وما لا نريد..

يلفنا من الآلام ما يجعلنا نفهم.. ولو بالقوة..

وصدقني.. لا شيء يجعلك تفهم كالألم..

حينها نفهم.. ونعي أنفسنا وقد أصبحنا نعرف من الحياة ما يجعلنا نخافها..

نفهمها جيداً حتى نخافها.. نخاف منها..

ننزوي في ثناياها.. نترقب.. نرفع رؤوسنا للسماء..

وقلوبنا تخفق بالانتظار لما لا نريده أن يجيء..

كصرخة خالتي مثلاً.. كخيزرانة زوجها حين تنهال على الأطفال جميعاً.. ومن بينهم أنا..

التي فعلت دائماً كل شيء.. رغم أنها في المطبخ دائماً..

مع ذلك فهي التي سكبت إبريق الشاي في مجلس الرجال..

وهي التي كسرت لمبة الحوش بالكرة.. وهي التي ردّت على الهاتف..

صالحة.. هي من يفعل كل شيء دائماً.. وهي من ينالها الألم.. قبل حتى أن تستعد له..

قبل حتى أن تستطيع أن تحمي رأسها المهوش بذراعيها النحيلتين..

كل شيء أتاني قبل أن أستعد له..

بدأت أعمل في المطبخ.. أغسل الأواني فوق قوطي النيدو..

وأكنس الحوش وأرشه وأسقي الريحان والنعناع قبل أن تأتي الخالات..

كل هذا كنت أفعله قبل أن تكبر يداي بشكل يجعلني أصل للبزبوز.. أو أمسك الليفة.. قبل أواني أعني..

وقبل أن أدخل المدرسة.. كنت قد بدأت أعد الشاي للرجال.. وأكثر منه.. فطور إخواني وأبناء خالتي.. قبل أن يذهبوا إلى المدرسة..

وبالحديث عن المدرسة.. فقد دخلتها في التاسعة أو العاشرة ربما..

ليس لأن خالتي كانت وقتها نفساء بثالث أطفالها.. ولا لأن بيتها كان مزدحماً بالنساء اللاتي كنت أخدمهن وأصب لهن الشاي ..

لكن لأن حجمي الضئيل سيجعل زميلاتي يضربنني ويأخذن فسحتي كما يضربني أولاد خالتي، ويأخذون البسكوت الذي تعطيني إياه خالتي حين أمسح المطبخ بشكل

جيد..

يا الله.. أهي دنيا.. وأمضيتها في مطبخ أهلي (كما كنت أدعوهم).. وكبرت مع طاولات المطبخ الحجرية القديمة..

ألعب بالأطباق الغضار المتسخة.. .أتسلّى بصوت خشخشة الليفة الخشنة على أطرافها المسودّة..

في حين أن بنات خالتي يلهون بالعرائس الجديدة.. لم يكن لدي عرائس..

خالتي عزّة تكرر كل مرة أنني (امرأة).. وأن علي أن أتعلم الطبخ والكد كي أكون (صقرة)..

حتى تحبني نساء الحارة.. ومن ثم تعجب بي أمهات الأولاد.. وتخطبنني لأبنائهن حين يذقن طعم الرظيفة والمشغوثة التي سأتعلمها السنة القادمة.. كما قررت خالتي.. عزّة.. ذات الأجر العظيم..

العرائس كانت عالمي السحري الذي قلت مراراً إنني حين أدخل الجنة.. سأتحسسه.. وسيكون لدي مملكة منهن..

حيث قالت لي خالتي إن عليَّ ألا يكون لي عرائس.. وأن العرائس للصغيرات اللاتي لم يتعلمن بعد كيفية رعاية الطفل..

أما أنا فقد تعلمت رعاية الصغير (علي) منذ أيام.. الابن الثالث لخالتي.. والذي كنت أحضّر له حليبه ولم أبلغ الخامسة بعد..

خبأت حلم العرائس في وسادتي وتحت (دوشقي)..

أعواداً كنت ألفها بالخرق.. أخبئها عن خالتي.. وحين يئست أن تصبح لها أعين تنفتح وتغلق.. أو أن تصبح لها خدود وردية..

رميت بها..

مرة كنت أقول لخالتي وردة.. ذات ضحى.. هل في الجنة عرايس؟

ابتسمت وهي تصمت طويلاً.. قبل أن تجمد دمي في عروقي (ودم خالتي وردة أيضاً)

نظرة من خالتي عزة وهي تضبطني أتحدث مع إحدى الخالات..

قفزت من على الحنبل ركضاً إلى المطبخ.. وأنا أسمع خالتي وردة تبحث بجملة مرتبكة عما يجعلها تبعد الشك بأنني قد سرّبت سرّاً أو اشتكيت ضرباً أو قلت ما لا يذاع.. أو شيئاً مما يمكن أن يفسد الأجر العظيم..

تسألني عن الجنة.. تقول: ماذا يوجد في الجنة؟ هي صالحة.. وستكون صالحة.. بإذن الله!

مرة تجرأت وتسللت لغرفة البنات لأرى كيف تفتح العروسة عينيها حين تقف.. وتغلق حين تنقلب.. كيف تفعل ذلك؟

انسابت روحي داخل عيني العروسة الزرقاوين.. تنظران إليَّ.. بشفتين باردتين ورديتين.. تحسستهما.. وتخيلتني أطير بها إلى حيث السحابة البيضاء التي أراها كل يو م في حوش الدار حين أستلقي على الحنبل..

هذه العروسة ستكون ملكي.. وبنتي.. سأسميها عبير.. كما هو اسم بنت جيراننا المدلّلة.. والجميلة.. ذات الشعر الممشوط والمجدول دائماً..

والتي لا يوجد في أصابعها سواد.. ولا حول شفتيها سواد.. ولا فوق رأسها عكاريش ملتفة مشهبّة بالغبار فوق الغبار..

سأخيط لعبير فستاناً جميلاً صغيراً.. سأطلب من الخالة عائشة الخياطة أن تفعل ذلك.. إنها أطيب من أن ترفض لي طلباً كهذا الطلب.. سأقول لها ألا تخبر خالتي عزة؛ حتى لا تضربني هذه الأخيرة وتتهمني بالشحاذة من الجيران.. وسأخبئها جيداً حتى لا يأخذوها مني..

والمشكلة أن أحلام الأطفال أطول من أن تقصها الأيام.. ولكن أيدي الكبار يمكنها أن تقطع أحلامي القصيرة.. التي استرقت من أجل أن أستغرق فيها جزءاً من وقت غسل الأواني..

كان كثيراً علي أن أكون طفلة ولو لثوانٍ أنهتها يد خالتي ذات الأصابع الطويلة..

والحواجب المعقوصة..

كلماتها اللاهثة بغضب قهر اليتيم.. ونشوة الانتصار على الأجساد الضعيفة المرتجفة وهي تتوسل بأنها آخر مرة..

ولعمر الله.. إنه لليتيم وحده من لا يملك حتى أن يبكي حين يوجس طعم الظلم..

لم تكن أول مرة تضربني فيها خالتي بالحطبة.. نعم.. الحطبة.. تلكم التي نستخدمها بعدما نقطعها نصفين لنشعلها ونطبخ عليها الأكل..

لكن ما حصل اليوم كان أوجع .. وأعظم..

وأعني به بالتحديد ما كان يفترض بي أن أفعل.. في عزومة خالتي عزة الشهرية، حيث هي هذه المرة صاحبة الضيفة ..

كان أنفها الدقيق محمر غضباً.. إن كل شيء في وجهها يشير إلى أن عليّ أن أكون صقرة وأكثر من صقرة..

ولأجل ذلك سرقت.. لأجل نفسي دقائق مسّدت فيها شعري المهوّش.. بقليل من الدهن الأبيض أبو وردة.. وقميص نظيف.. وركض لم ينته بمجيء الحريم للعزومة الطويلة التي صففنا أنا وأخواتي (بنات خالتي) صحون الفاكهة..

نهرتني خالتي أن اذهبي للمطبخ واتركي صف الفاكهة لـ(صغار) اللاتي تصغرني أكبرهن بسنة.. تعالي معي..

ركضت خلفها وهي تشير إلى قدر الهريسة الكبير.. وداخله المعصاد الضخم يغلي ويبربر..

فتحات أنفها كانت ترتجف بشكل أرعبني وهي تعلّمني كيف أعصد الهريسة باستمرار كل دقيقتين..

وتحرصني بقرصة قوية على ذراعي.. تبثها همّ عزومة لم تنم لأجلها عدة ليالٍ..

وهكذا كانت خالتي عزّة.. كل شيء يكتنز في صدرها.. ينفضح داخل ذراعيّ قرصات زرقاء..

انفراج لا مثيل له..

وحينما ركضت الـ(صقرة) باتجاه من استقبلتهن بآلاف من المراحب..

ارتجفت طويلاً أمام القدر العظيم الذي يفوح بخاراً لذيذ الرائحة..

طالما كرهت هذا المشهد.. وخفت منه في التلفزيون.. أن يتصاعد البخار.. ويوحي بوجود حرارة..

وحين يطير رذاذ الهريسة ليلسع ذراعي.. يوجعني ذلك أكثر.. وأنا أضطر أن أتحمل كل ذلك حتى لا أهزّ القدر فوق الـ(قز) الصغير ذي السيقان المتخلخلة..

عصدت بما فيه الكفاية.. وأوجعتني كتفي أكثر وأنا أحاول أن أسترق نظرة من خلف باب المطبخ..

لبنات خالتي يركضن مع إيمان بنت الجيران.. باتجاه غرفتهن ذات العرائس..

شيء حارق تسلل إلى قلبي.. وجعل دمعة تسارع بالانبجاس داخل عيني..

في لحظتها دخلت أم أحمد.. جارتنا.. لتغسل رضاعة طفلها..

وقفت طويلاً تتأمل قامتي.. وماذا أفعل بجوار قدر الهريسة!!

صرخت فيّ: يا بنت.. (روحي بعّدي عن الحار)..

وسحبت المعصاد من يدي وهي تنهرني لأخرج من المطبخ..

(روحي العبي مع البنات يالله.. يالله..)!!

لوهلة وقفت.. ترددت طويلاً.. وهي تهشّني بيدها وتسلت بالأخرى معصاد الهريسة..

قلبي الصغير كان يحترق لمرأى عروسة.. ركضت لغرفة البنات.. فتحت البنات.. فتحت الباب بعنف الرغبة..

وشيء كريه في عوينات بنات خالتي وهن يمسكن بإيمان ويسررن في أذنها كلاماً خفياً..

تكوّمت في طرف الغرفة أرمقهن محتبية شادّةً حافة قميصي حول ساقي..

لطالما أحببت أن أجلس في أوقات فراغي.. أرمق بنات خالتي يلعّبن طفلاتهن الورديات.. ويتعلمن كيفية رعاية الصغير.. ويمسكن برضاعة بلاستيكية بيضاء.. ويرضعن الطفلات ذوات الأعين التي تفتح وتغلق..

كانت متعة حياتي أن أبقى أرمق..

لم أفكّر لحظة أن أطلب أو أتمنى أكثر من أن أرمق..

عند حدود كحدودي الحمراء.. يصبح لا شيء أجمل من الأحلام..

لا تريد لها أن تتحقق إذ لو تحققت.. انتهت لذة الحلم..

عند هذا الحد تعالت أصوات النساء.. عالية متداخلة توحي بمصيبة.. بشيء حصل..

صوت طفل يبكي عالياً.. يصرخ من الألم..

لأول مرة لا أسمع صوت صفق رجلي على بلاط الدرج.. وأنا أركض لأرى ما حصل..

خالتي عزة تحمل طفلاً لإحدى النساء وهي تصرخ في ذهول لا واعٍ:

(صالحة.. جيبي الموية يا قبيحة)!!

كان الطفل يرفس من ألم ما انسكب على ساقيه الصغيرتين من قدر الهريسة.. كانت النساء يخلعن ثيابه..

مر وقت طويل ليخمد صراخ الطفل بعدد خطوات أمه خارج الدار..

حين ألقت إليَّ خالتي بنظرتها الطويلة.. تسرّب شيء حار ساخن داخل ثيابي..

هرعت لأجله إلى سطح الدار.. أرقب الشمس التي صارت بغيضة كريهة لا تريد أن تروح..

دموعي تستدر عطف الدقائق.. أرفع يدي إلى الله..

أخلع ما تبلل من ثيابي..

حين قاربت الشمس على الغروب.. وحين نفدت دموع خوفي.. وجفف الانتظار جوفي..

وجدتني أرفع رأسي أخيراً لأرى عينيها الحمراوين.. فتحتا أنفها الدقيق تكاد تتمزقان..
حاجباها يبدوان صامتين يختزنان ما هو أبشع من إبليس..
كانت بيدها حطبة عريضة.. كبيرة .. هوت بها على جسدي في صمت الجبارين..
قهر الصقرة.. حين تكسر صقارتها الأشياء الصغيرة أمثالي..
هوت بها على رأسي.. على يدي.. ذراعي.. وفوق فخذي..
لم أشعر إلا بأصابع رجلي تنمِّل حين بدأت الحطبة تتكسر علي ساقي..
أحمي بيدي ساقي.. وثم أحمي يدي بساقي..
أحمي رأسي بذراعي.. وثم تهوي الحطبة عليها فأسحب ذراعي أنفضها ألماً..
ذلك الألم الذي يجعلني أقفز من مكاني أحاول أن أمسك يدها..
- والله يا خاله.. والله يا خال.. آخر مرة.. خالتي أم أحمد .. والله آخر.. آآآآآى..
كل ضربة كانت تودعها كبرياء الصقرة..
كحتت الحطبة من بشرة ساقي وذراعي المكشوفين المغبرّتين.. ما حاولت أن أحكه..
أبرده..
سحبتني من جديلتي اليمني للأسفل.. وبامتداد الدرج كانت تودعني ضربة أو ضربتين
فيها نفثة مصدور ..
لم يكن هذا كل شيء.. فقد سحبتني للمطبخ..
إلى حيث القدر المسكوب الذي مسحت الخالات جزءاً مما على الأرض الترابية..
وتركن القدر الكبير قد جفت على أطرافه بقايا الهريس الذي التهمنه..
كانت طوال الوقت تضرب بهدوء.. بصمت.. لم تنبس ببنت شفة.. لم تتكلم..
وجدتها تسحبني من جديلتي إلى حيث الموقد.. وكان فوقه إبريق شاي..
بعين واحدة لمحت البنات يتجمعن على باب المطبخ.. بكت الصغيرة ذعراً وذهولاً..
وشاركتها الأخريات بعد.. لم تكن المرة الأولى التي أضرب فيها أمامهن.. ولكن هذه
المرة كانت أمهن تبدو شيطانة حتى بالنسبة لهن..

لعنتهن الأم بأن يذهبن لغرفتهن ويغلقن الباب..

لم تكف الصغيرة عن البكاء حتى حملتها أختها الكبرى وهربتا بعيداً..

كانت لحظتها قد أحمت ملعقة على نار الموقد..

كانت تريد أن تؤلمني أكثر.. لكي أفهم..

تذكّر.. لا شيء يجعلك تفهم جيداً.. مثل الألم..

ألم الذعر.. الذهول.. الخزي وبلل ملابسي حول ساقي الباردتين.. وصفير حلقي المتلئ بلغماً جافاً ممزوجاً بغبار السطح والحطبة..

ألم لهيب الملعقة يتقافز فوق كفّي الصغيرتين تدافعان وتطوّحان في الهواء بعيداً.. لا يا خالة.. لا خالة.. يمه.. يمااااه.. يمااااه..

****

عزة تبلغ الخامسة والسبعين الآن.. تستعد لترقص في حفلة حفيدتها التي ستتزوج أحد ملياردیرات القوم..

وما زالت رغم كل شيء.. حين تراني في الحفلات.. تهتف لي: يا مرحبا ببنتي.. يا مرحبا ألف..

وما زال الناس يسمونها بكافلة اليتيمة.. ويتحدثون عن كيف ربّت الصقرة التي تزوجت في سن الثالثة عشرة.. التي تبيّض وجه زوجها.. وتكرم ضيفها..

وتحسن الرضيفة.. والمشغوثة.. والهريسة.. والعريكة..

حتى أصابتها العين.. واشتعل المرض الخبيث في جسدها الضئيل..

ما زال كل ذلك بفضل عزّة.. ذات الأجر العظيم.. الله يطوّل عمرها ويزيدها إيماناً..

وما زالت حين تسمع كل هذا تنتفخ فتحتا أنفها الدقيق.. حتى تكادا تنفرجان كجناحي فراشة..

الآن أنا أبلغ الخامسة والأربعين.. آلام الورم السرطاني تقول إنني لن أعيش طويلاً..

دعوت الله تعالى أن يشفيني لكي لا تذوق بناتي الأربع مرارة ما ذقته..

لكن لكل شيء حكمة..

الآن أنا أودّع الحياة.. كما ودعها زوجي قبل خمس سنوات..

المصاب عسير.. والوعد جنات النعيم..

(الله الله في خواتك يا عبير...).

****

صلوات الله وسلامه على روحك يا صالحة..

يا من كنتِ تعملين وحدك.. تضربين وحدك..

تموتين وحدك..

وتكتبين آلامك بصمت الأيتام..

سامحيني.. .حللِيني أيتها.. الصالحة..

إن أذنت لأحرفي أن تنسج حرارة ألمك..

وجعلتها تلف حزن الأطفال.. وأحلام الحوريات.. وتغزله في مصنع القصص..

مدّي يدك من داخل قبرك البارد كفراش شتائك الذي وصفته قاسياً ممزقاً.. مشقوقاً من المنتصف.. مبقّعاً بالدموع..

محشواً بتأوهات البرد وأوجاع اللسعات..

اسقيني ألماً.. حدثيني ألماً.. قولي لي ألماً.. أروي لي ألماً يا صالحة..

اجعليني أكونك لحظة.. حتى أفهم..

لأجل قبرك الطاهر سأسجد طويلاً.. سأدعو الرحمن الرحيم.. ليس أن يرحمك..

سأدعوه أن يرحمنا نحن.. أن يجعلنا نفهم.. أن يجعلنا نتقن وجع المتألمين.. بدلاً من رصف الحروف..

أن يجعلنا نعي صلادة الكهوف.. وحرشة الحطب.. بدلاً من ريش النعام..

بدلاً من نعومة القطن.. وروائح الأزهار.. ودفء الاحتضان..

بدلاً من كل مفاتن الدنيا.. التي نرتمس فيها حتى حين..

تلك التي إذا أعطت أعطت..

وإذا داست داست..

على روحك الطاهرة ألف صلاة.. ألف ألف صلاة..

آلاف الصلوات بقدر ما تأوهتِ..

عدد ما تألمتِ..

عدد ما ذعرتِ.. عدد ما خاف جسدك الضئيل..

عدد ما استضعفك كافلو الأيتام..

وعدد ما استكثروا في يدك العرائس..

وعلى عقلك الأحلام..

عليك صلاة.. صلاة تغمرك حتى تشهق روحك الخضراء سعادة..

حتى تسكر حلماً.. حتى تبعث بياضاً.. نوراً لا ينتهي..

برايتون

١٠- ٠٦- ٢٠٠٧

نفيدكم علماً!

4

ـ هذه لا تصلح.. أتريدين أن تقولي له.. يعني للوزير.. (عليك أن تعرف يا هذا)..؟

ـ من علّمك كتابة المعاريض؟

تعلك أمل لبانتها وتنفث في وجهي رائحة المستكة والحسرة..

من علّمك أن تكتبي هذه الكلمات القرميدية.. قال نفيدكم.. علماً.. قال!

القلم يرقص.. أصابعي ترقّصه لهفة.. انتظاراً.. خوفاً.. أملاً لا أملّ منه..

لكم أخبرت نفسي في ليالي الفواتير مؤجلة الدفع.. والإنذار النهائي بفصل التيار..

ومكالمات المؤجر المذكرة بحلول الإيجار.. لكم أخبرت نفسي أن عمر الأمل قصير..

وأن الأيام هنا أعجز وأوهى من أن تحمل الأمل.. والحلم..

إن إدمان الأمل أمر ليس أسوأ من إدمان الهروين.. مصيره كمصير المدمنين..

الأشقياء.. وأيتام الزمن.. في مستشفاه.. مستشفى يعالجون به الناس..

أو يعالجون الناس منه..

شطبت (نفيدكم علماً) في الليل.. بعدما تفرغت لعرسي المعاريضي الليلي.. ولكن

جرى القلم شقياً أشهب منزوع السدّادة العلوية.. نفيدكم علماً..

هذه المرة توقفت أتأمل قلمي.. أبو نص.. أغوص في جوفه، حيث يختبئ لعابي..

وأزمنتي المطيرة الخضراء التي تقاسمتها مع إخوتي الثلاثة وأمي.. التي كانت تودع كل واحد منا قلمين.. أحمر وأزرق..

ولطالما فخرت أمي بأنني أحافظ على أقلامي طوال السنة بخلاف إخوتي.. الذين ضاعت وما زالت تضيع أقلامهم.. وتنتفخ كروشهم ومحافظهم..

بلغ ابني السابعة عشرة قبل سنة.. أنهى الثانوية التجارية قبل سنة.. واستخرج رخصة قيادة الهايلكس العرجاء أيضاً قبل سنة..

سنة كاملة أفيدكم علماً أنني كنت أعده للحياة.. أدفعه باتجاه الزمن يحمي ما تبقى مني من أكثر من سبع سنين.. حياة فردت لها ذراعي فواتير وإيجاراً وأكلاً..

سبع سنين مدة صمودي في عاصوف الحياة.. ولا أحد منكم يعرف أو يستفيد علماً..

أن ترعش الصفحة في يدي المعروقتين لهفة وترقباً وحماساً وأملاً.. لم يعد أمراً غير مألوف.. فأنا أثق.. وآمل.. ولدي قدرة غير عادية على الأمل..

أثق بقيادتنا الرشيدة.. والحكومة ما قصرت.. وروحنا فداء لهذا الوطن.. وأملي بالله ثم بكم يا أصحاب القلوب الرحيمة..

وكل ليلة أنتهي فيها باكراً من إعداد المعمول.. مصدر رزقي شبه الوحيد باستثناء صدقات أهل الخير وجمعية البر..

ومن ثم أستلقي على سريري الخاوي الرمادي منذ هجره زوجي قبل أن تصيبه العين وتسحره المغربية..

لحظتها أحتضن قلمي الأبو نص.. لم أكن أعرف أنه يملك قلباً لا يملكه أشقائي المتكرّشون ولا زوجي الخائب.. ولا حتى ابني الذي أرهقه الشباب المسحول بفورة الطاقات ونسيان الأيام للضعفاء والمساكين..

- يالله إنك ترحم ضعفي وضعف وليدي.. يالله إنك ترزقه بوظيّفة..

على قلمي الأشهب آثار أسناني.. حين يأخذني الحماس إلى استجداءات بارعة لم يعد يجيدها إلا أمثالي..

- ولمقام سموّكم الكريم..
- وطمعاً في عطف سموكم الكريم..
- وقد سمعنا عن مواقفكم الإنسانية..
- ولذلك أرفع أكف الضراعة راجية أن تفكوا كربتي..
- وليس هذا بغريب على أياديكم البيضاء..

أكثر ما جادت به كلماتي المبتكرة كان عشرة آلاف ريال، سددت منها إيجار ستة أشهر..

ورفعت الباقي لزمن شاتٍ يعرف كيف يكفهر ويلسع ويوجع حين يلسع..

ويعرف كيف يبكيك جيداً.. ولو تجلّدت له ما تجلّدت..

- مير إن ربك كريم يا فطيمة .. من رجاه ما خيبه..

هذه أم محمد.. تواسيني على الهاتف حين توغل لسعات الأيام ..

أم محمد قسيمة الأمل.. والألم.. والحلم.. وبطلة أرقام الخطابات.. والمسوّقات لمعمولي اللذيذ..

كنا أربعاً من الحريم.. متسعات الأفواه.. ذابلات الفتيل..

جمعتنا صدقات المحسنين وراتب الشؤون الاجتماعية.. وجيرة طويلة في (الشفا)..

يزيدنا شتاء النسيان رهقاً..

يرتق بعضنا ضعف بعضٍ بالدعوات.. والوعود.. والأمنيات التي لن تنتهي..

الحياة التي سنقطع رصيفها شئنا أم أبينا..

يؤلم النسيان ركبنا فندهنها بالفكس.. وتئزُّ من اللهاث رئاتنا فندلكها بزيت الحبة السوداء..

وتلتهب دواخلنا أسى وغضباً فنلهم الصك لك.. والمرّة..

وربما استشمت جراحنا بعد هبّة عطر يستنكرها حداد أرواحنا الدائم فهرعنا نشمّ الحلتيتة..

يُذكر لنا شيخٌ شاطرٌ في علاج العين التي تنهشنا من دون خلق الله..

وحسبي الله على من طالنا شره..

نهرع للشيخ أسبوعاً ثم لا نشفى..

- ومن يريد الشفاء.. فليداوم على القراءة.!

هكذا كان يقول.. وهكذا كنا ندهن حيواتنا.. بابتساماتنا.. ونطوي على دواخلنا عظاماً هشة يعركها الزمن كما يجب..

آه يا دنيا الشقاء.. هكذا كانت تردد لطيفة.. أم الأولاد الخمسة..

تقولها.. فنبتسم.. ونكمل قرض الفصفص ورشف الشاي..

وإذ تهشّ أم محمد لسلمى المطلّقة.. برقم عريس يختبئ في جوالها..

- مسيار.. ما نبيه يا أم محمد..!

حينها لا يوجد أمتع من صوت أم محمد حين تهزأ برميم الأنوثة في ثياب سلمى:

- عساه يحصل لو مسيار!

حيث كنت أصغرهن الـ(مثقفة) منهن باعتباري أحمل الدرجة الأعلى بينهن.. فقد كنت موكلة بكتابة المعاريض: وأنت يا فطيم عندك أسلوب ما شاء الله عليك!

تسمع أم نوّاف أن إحداهن وجدت عملاً في أحد المصانع التي يملكها أحد الكبار..

- (أبيك تكتبين لي كلام حلو، تشرحين وضعي وحالتي أنا وهالبزران اللي ما لهم والي..)!

كتبت لها ورقتين من أربعة أوجه.. وختمتها بدعوات استنزلت فيها رحمات الرحمن الرحيم على روحه وروح والديه وذريته.. أن ارحم هذه الروح الخائفة في دور أرضي عريق غير حصين في الشفا.. حيث تسكن أرواحنا الذابلة..

كتبت لكل دائرة حكومية يمكنك أن تسميها في الرياض.. أريد لابني وظيفة.. وكتبت لكل من تتخيله من أهل الخير وأهل القلوب الرحيمة أريد لبيتي إيجاراً.. ولفواتيري سداداً..

اليوم سأفلح كما لا أفلح كل يوم في كتابة معروضي..

طقوسي التي أغازل بها قلمي الأشهب (كما أتعاطاه بعض الأحيان).. وهو يمتنع كعادته من الكتابة إلى أن يحتقن جرمه بأنفاسي ولعابي أدفع به ما تبقى من روحه للأسفل..

- يا صاحب القلب الرحيم.. يا من نسمع عنه القصص التي تروي عن كرمه وجوده وشهامته ونخوته..

ولو علمت غيرها من المرادفات لكتبتها..

لا أحد منكم طبعاً سيفكر كم تنفخ كل واحدة منها الرأس وتحقنه بنشوة النخوة..

تلك التي نستعطف زفرتها ونفرد أذرعنا بانتظار زفيرها وغبارها فارغ الصبر..

يالله لا تقطع رجانا.. يالله إنك تسخر لنا أهل الخير..

- عندي ولد مراهق يبلغ من العمر ١٩ سنة.. شاب يتفجر حيوية وطاقة.. ولا يحمل إلا الثانوية التجارية.. تركنا زوجي وقد كان طفلاً صغيراً.. وشقيت في تربيته وتعليمه..!

طالما كنت آخذ في القواعد ١٥.. وفي التعبير ١٤..

أرفع رأسي ككل مرة إلى مرآة خزانة ملابسي..

أستطلع اللهفة التي تسكن وجهي ذي الآمال والأحلام والنشوة الخداعة..

أشاهد لهفة بنت الابتدائي في وجهي الكبير..

وحيث تهتز ساقاي بطفولية حل الواجب.. يسكنني فرح تعرفونه..

هو ذاك الذي بطعم التشهّي.. والأضغاث الخضراء..

ذاك الذي لا يعرفه إلا الجائعون.. والمنسيون.. والذين لديهم العمر كله ليصنعوا من أيامه بيوت ورق يثرثرون عنها..

يستكتمون أصدقاءهم إياها..

يحمونها من العين والسحر..

لتنهار حين تمطر أجراسُ الشقق فواتيرَ وإيجارات..

- (يمه.. معك عشرين أعبي بنزين)؟

الرياض

يوليو.. ٢٠٠٧

أوجاع الدمى..

5

لقلب صديقتي.. حين يتشقق لهفة..

****

مخبوءة داخل صندوق الزجاج..

خلفها وأمامها شبيهاتها وأجمل منها وأصغر وأثقل .. وقطع من الحلوى..

وأقراص من العلكة..

وأيام من السكون..

****

نعم والله توجعها الوحدة.. وقلة الحبيب والرفيق...

وهواء الزجاجة الخانق..

تتمنى فارساً صغيراً يلقطها باتجاه منزله..

يركنها جوار عرائسه.. حيث تتعرف على دمى أخرى.. ودباديب..

وربما قامت بمغامرات وأشياء تملأ زمانها الذي يشبه بعضه بعضاً..

ولكنها هنا منذ أحقاب طوال.. أعني حين يكون الأمس كاليوم.. واليوم كالغد..

حيث لا جديد غير الانتظار..

ولا طعم للثواني ولا للدقائق..

هكذا لو أصغيت إلى قلبها القماشي..

لشعرت بألم صوتها يجر أمنية عميقة عمرها ربما عشرات الأيام من الدعوات بالفارس الصالح..

تريده ينظر إليها ويتمناها كما تتمناه وتهف إليه..

كما تكتب له القصائد الطوال..

وتهف شوقاً كلما مرق من جوارها طرف شماغ أو خيال غترة..

تبث السماء أوجاعها وتبوح لها بأمانيها..

وإذ يعييها مرُّ الانتظار لربما سمعت الدمى تبث بعضها بعضاً آهة..

أمنيات وتعازٍ.. دعوات طوال باحتراق ما بداخلها..

- إن شاء الله عقبالك هالمرّة..

- متى؟

بألم الانتظارات كلها تجرّها

تجاملها الأخريات.. أنتِ ما شاء الله عليك حلوة..!

- الله يرزقن باللي يشوف حلاي..!

تقذفها بحرارة انتظار ممل دام ٢٩ عاماً..

داخل صندوق الزجاج..

****

أتى طفل جامح الرغبة هذا اليوم..

تقول الدمية لصديقتها..!

قذف قرشاً داخل آلة العرائس..

في فمه عود متسخ تقطر منه ألوان وسخة..

كل العرائس صلّت أن تكون عروس اليوم..

كل العرائس هرعت.. وقفت..

من ثم حلمت أن يلفّها شريط أبيض وردي..

أن تنزلق داخل ممر ناعم باتجاه يدي الطفل..

أن يحضنها ولو بعنف تحت ذراعه..

إنها وإن كانت مختنقة تحت ضغط ذراعه فهي على الأقل تستنشق هواء مختلفاً..

عن هواء الزجاجة المكرور والممل..

- يا رب.. !

تقولها الدمى..

بصوت عالٍ يكاد يشقق جدران غرفة الانتظار..

لا يسمعه الطفل..

حتماً لا يسمعه..

ولا ينبغي له أن يسمعه..!

****

تقطر من فمه اللاهث وساخة عسلية..

تتضاحك الدمى بشغف اللهفة..

تتبادل نظرات الأمل والغنج.. وتستملح عبث الأطفال..

وتستجدي عطف اللحظات..

- إن شاء الله أنتِ هذه المرّة!

ذات التسعة والعشرين عاماً لم يتبق من صوفها ما يكفي لأن تتشبث بذراع الالتقاط..

هتفت من أعماق قلب أحرقته الأماني: الله كريم..

يبتر الطفل عبثه الموجع وهو يحرّك ذراع الحظ..

تقطر من فمه وساخة أكثر.. يصيح بكلام غير مفهوم.. يرغي..

ترتفع أصوات الدمى احتجاجاً وهي تراقبه يهرب بعيداً.. بعيداً..
باتجاه صديق في عمر مماثل..!

****

موجعة حياة تحنطك وتتركك تقبع في طابور انتظار طويل..
تعبث بك الأحلام..
تجعلك مسنوداً إلى قماشات مثلك..
وتحت رحمة لحظات العبث والمرح.. .يقع مصيرك..
قد تلقطك أذرع الحظ.. فتدفع أكثر.. وتحاول أن تتشبث بذراع الحظ أكثر..
تتذكر الدمى أنها لا تستطيع أن تتحرك.. أو تتشبث.. إلا في الأحلام وأفلام الكرتون..
تنتظر قدرها.. تحتقن حزناً..
تمشط شعرها..
تطيل أظافرها وضفائرها..
تتأنق في كل مرة..
تفرك بقع الأيام في وجوهها وأجسادها..
تنتظر أملاً لا يموت.. لن يموت حتى تموت..
يأتي طفل آخر..
مراهق آخر..
يدخل قرشاً..
وتتهافت الدمى..
وتتخيل الحلم نفسه كل مرة..
وتزف كل واحدة منهن في أحلامها إلى ممر ناعم باتجاه أذرع خشنة وقاسية..
محاولة.. محاولتان..

تنزلق الدمى من ذراع الحظ مرة أخرى..

تذوب حسرة.. تندب الحظ.. وثم تحزن..

ثم.. لا شيء..!

****

لندن

٢٨ سبتمبر - ٢٠٠٧

القبيحات!

6

لم أرَ..

لن أرى..

لم يكن في حسبتي شيء من هذه الـ(لن).. قبل أن أغدو هناك..

وأرى نساء.. بكل ذلك القبح..!

****

دقت ساعة زمن يقبع في غرفتها التي تفوح بروائح العناية المركزة..

الديتول والأبيض.. والمفارش الزرقاء التي تذكرني بزمن معتم قضيته معها مرافقة في مستشفى حكومي..

كانت الجلطة هذه المرة أقسى من سابقتها..

وكان وقعها على دماغها الضعيف أشنع..

تركتها هذه المرة بلا بقايا عقل.. ولا ذاكرة.. ولا حتى كراهية..

أصبحت تحب الكل.. وهذا يدل على أنها حقاً مريضة..

لا شيء سوى ابتسامة بيضاء بلا هوية ولا معنى..

ويد تمتد نحوي تطلب كل شيء في كل حين..

- سلمى.. أعطني عيشة..!

- سلمى.. وين القبلة أصلي!

- سلمى.. الله أكبر.. سبحانك اللهم وبحمدك.. تبارك اسمك وتعالى جدك.. (لا تنسين عشا أبوك...)!

أيام كثيرة طويتها.. ليل يطوي نهاراً.. ونهار يطوي ليلاً..

أستعجل الأيام لتفنى.. ويفنى معها الألم..

لكنها لا تفنى.. ولا يفنى الألم..

يبدو أن من سيفنى هو أنا.. أو أمي.. أو كلانا قبل أن ينفد ألمه..

****

ليس لوالدتي أحد غيري..

على الأقل.. أحد حقيقي..

نعم.. وإن كانت والدتي قد أنتجت عائلة كبيرة بفروع وأغصان.. تمتد من ست بنات متزوجات يصغرنني..

وأربعة أولاد كبار.. ولدوا بعدي..

فإن أحداً منهم لم يعد يتذكرها بعد جلطتيها إلا بزيارة في الأسبوع.. حبة على رأس أمي..

ومبلغ من المال في يدي..

ودعاء لي بالتوفيق والعوض في الآخرة.. على التضحية.. والأجر العظيم..!

دقيقة واحدة من فضلكم..

إنه موعد حبة الساعة الثامنة..!

****

تأكدت مئة مرة من نظافة وجه أمي من بقايا الكحل..

لا أجمل من وجه أمي في الوجود كله.. حين أطوّقه بالغدفة فوق شعر ممشوط محنّى..

مغمور بالعود والعطر..

حتى الشمس والقمر.. والنجوم وكل الكوائن الجميلة..

تخجل من بسمة أمي. وانبلاج وجهها.. وصوتها المبحوح من حنجرة شُقَّت مراراً لأجل التنفس..

بفرحها الممل الذي لا مبرر له..

وصلواتها التي لا تنقطع..

لا أجمل من يديها المعروقتين الشاحبتين تمتدان إليّ.. تطلبان أكلاً.. بلا جدوى..

وحيث إن أمي لا تستطيع البلع.. منذ سنتين..

فإن يديها تطوقانني بلهفة تضايقني كل مرة حين أقترب منها.. أتأكد من نظافة وجهها وثوبها..

تقبلني بلهفة وشغف يضايقني ويخيفني كل مرة..

كأن الجوع سيجعلها تأكلني لحظة ما..

أزمنة طويلة عاشتها أمي تتأكد من نظافة عيني قبل الذهاب للمدرسة..

أزمنة طويلة عاشتها بين أناس لا تنفد..

وزائرات يخطبن ودّ سواليفها المضحكة.. وحلاوة قلبها..

دقت ساعاتنا طويلاً بعد جلطتيها..

ولم يكن هناك من يسلينا سوى الغبار.. والجرائد..

وراتب الشؤون الاجتماعية..

وبضع دقات هاتف.. تستنبئ على عجل.. تدعو بالتوفيق والعوض..

والشفاء..

ثم تغلق على الفراغ.. والصمت..

****

واليوم سيكون الوضع مختلفاً..

برّجت وجه والدتي كما يجب..

كما كانت تفعل بأصبع الروج السحري على شفتي وخدّي قبل خمس وثلاثين عاماً..

مضى من العد أحد عشر شهراً لم أخرج خلالها إلا للمستشفى..

اليوم سنخرج ووالدتي.. وشقيقتي الصغرى ستأتي لتساعدني في دفع كرسيها المتحرك..

متنزه نسائي صغير.. توسّع صدرها..

تنظر في الخضرة.. والمارة.. وتبتسم للكل..

****

كطفل يهتز في محبس بدت والدتي وهي تحرك يديها وتصيح بصوتها المبحوح في بهجة الأماكن الخضراء..

- سلمى.. وين القبلة أصلي..!

وبفرح غريب.. كفرحي ليلة يومي الأول

في المدرسة..

وفرحتي ليلة نتائج التخرج..

وفرحة ليلة دخلتي.. وليلة طلاقي..

أعني.. فرح الليالي التي نحبّها..

وتجعلنا شغوفين لأن تأتي صباحاتها..

بكل ذلك الفرح كنت أدخل متنزه النساء..

أدخل وتدخل معي نقابات وعباءات وبراقع.. أشكال بدت لي (بعد سنة من الاحتجاب) غير مألوفة..

يعجبني بعضها وأنكر بعضاً..

وأجعل البعض منها منكراً.. والآخر معروفاً.. وهلم نظراً..

نظراً ظننته لن يتوقف.. حتى أحسست بالإحراج ..

أو قل حتى أحسست بحركة أمي على الكرسي..

قفزت من مكاني، حيث جلست على أحد الكراسي..

- وين القبلة أصلي؟

كشفت وجهها الزمردي لتسطع هالة من النور.. يمكنها أن توقف الزمان..

لو أن أحداً عرف من هذه.. أمي أعني..

ربما لم ير أحد سطعة النور غيري.. وإلا فكيف لا تتوقف هاته النسوان عن المشي والجري باتجاه الألعاب وخلف الأطفال؟

استدنيت عباءتي فخلعتها.. وقفت لأستبين إن كانت شقيقتي قد جاءت أم لا..

كنت أتضور جوعاً.. ولن أتناول قهوتي حتى تأتي لـ(نفنجل سوا)..

- (يمه الحين موب وقت صلاة.. هششششش..)!

دفعت الكرسي.. وقد علقت على أحد مقبضيه سلة القهوة..

الناس هنا تعيش.. تعيش جيداً..

تدخل بعضهن ببرطمانات من الفطائر.. سندوتشات..

وحتى فاكهة..

ابتسمت طويلاً بامتداد أزمنة أمي التي قضتها تهزأ بالـ(أجانب) وحرصهم على صحتهم..

واصطحابهم للتفاح والبرتقال والماء في النزهات..

حيث كانت تأخذنا..

وتشتري لنا هناك ما لا تشتري في أيامنا العادية..

لحست شفتي وكبدي تهف على آيس كريم بسكوت..

تلفت يمنة ويسرة.. وجدت كشكاً دفعت أمي إليه..

كانت لا تزال تهذي: (سلمى أبوك وينه؟ ما قال متى يبي عشاه..)؟

أخذت مثلجتي تقطر طفولة ولهفة وذكريات.. فوق منديل لحسته قبل أن ألحس البسكوت..

جميلة أنتِ يا أياماً عشناها ونحن نعيش..

ونحن نريدها أن تبقى..

كما نريدها الآن أن تغادر بسرعة.. بأسرع ما يمكن..!

****

مجموعة من الفتيات تجمّعت حول كرسي ما.. تضحك بهستيريا عجيبة على شيء ما..

كنت ألحس مثلجتي حين مررت أدفع عربة أمي.. أبحث يمنة ويسرة..

ربما كانت شقيقتي في ركن ما وقد أخبرتني أنها حين تأتي فستتصل..

تذكرت من ضحكهن ضحك الفصل في الحصة السابعة في عز القيظ..

حين تنطلق ضحكة هامسة فينفجر معها الفصل بلا معنى..

سوى أنها ضحكة الحصة السابعة..

فطنت لأمي تستجدي هذه المرة

وقد لمحت الـ.. آيس كريم في يدي..

- (يا بنيتي.. أبي عيشة.. عطيني عيشة.. بس أبل ريقي..)!

ولطالما حرصت ألا تراني آكل.. أو تشم رائحة الأكل وقد مررنا من كشك ذرة عبقت روائحه بحيث دخلت تجاويف أنفها.. ولم يعد بوسعي سوى أن أركع وأبل منديلي بقليل من الماء.. وأمسح به شفتيها الطاهرتين..

ناحت والدتي بصوت عالٍ هذه المرّة والدمع يتسرب من عينيها:

- (لا لا.. ما أبي ماء.. أبي عيشة.. عطيني عيشة.. شين آكله.. عند الله سعة)!

وانفجرت لحظتها عاصفة من الضحك الهستيري خلفي..

وأنا أعدّ نفسي لأخبر أمي أنها مصابة بالسكر.. وأنها لا تستطيع أن تأكل إلا ما حقنته في معدتها عصر اليوم..

التفتّ أقل من لحظة، حيث انكتمت الضحكات بغتة.. وحيث عدت بوجهي لأخاطب أمي

انفجرت الضحكات مرة أوجع.. وأعمق..

وإلى حيث أردت أن أدفع كرسي والدتي والدمع يزدحم على جفني..

وصليل الفناجيل يضطرب داخل السلة، حيث أدفع بعنف..

- (عمى.. إن شالله.. ما تشوفين..)!

أخفى إجهاش عيني طولها اللعين.. وهي تلعن وتسب وتتحدث في الجوال..

خوف شديد وغربة اكتنفتني.. وذهول والضحكات تطاردني..

لمحتُ يدي والدتي تمتدان فجأة للأمام..

- (منيرتا الأحمد.. هلا والله.. يالله حيها)!!

كانت امرأة مسنة تنحني على والدتي لتقبلها بشغف:

- يالله إنك تعظم أجرها.. يالله إنك تعوضها بالجنة!

قبلتها والدتي بشوق عظيم وهي تسألها عن زوجها.. ومزرعة أهلهم.. ونخلهم.. والأرطى.. والسبيل..

وحيث تشبثت بها والدتي وأنا أحاول فك الاشتباك بكلمات امتنان للعجوز الحانية كي تمضي بسلام خلف ابنتيها اللتين تشيران إليها في إحراج وتقزز واضح..

- (ورا ما تقهوين معنا.. حالفتن إن تقهوين يام فهد..)!

دفعت العربة بألم لا ينتهي..

صوت الضحكات ما زال في أذني.. يخرق صماخها ويقول لها إن هناك كائنات ملعونة تقتات من ألم الآخرين..

ويبهجها وجد الفقراء.. وضعف المساكين..

وتثير نشوتها (كما لا يثير أي شيء آخر) بهجة أن استغنى.. إن إلى ربك الرجعى..

****

وقت المغرب سيحين.. وشقيقتي لم تصل بعد..

ولم تتصل.. وعلي أن أستعد للصلاة..

- (وين نبي نروح يا سلمى)؟

دفعتها باتجاه دورات المياه.. أدفعها برفق بين الوجوه التي تتأكد من مكياجها في المرايا..

وتشد ملابسها لأعلى أو لأسفل..

ترمقني بعين باردة تكاد تكون ناقمة..

تقيسني من أعلاي لأخمص قدمي وأنا أدفع والدتي إلى أحد المراحيض..

احتقنت عيناها فجأة بذهول مقلوب الشفتين..

فوجئت بدقائق بصوت عالٍ نهرتني به عاملة النظافة وأنا أفرغ كيس التبوّل على جانب كرسي أمي في أحد المراحيض:

- (إش هادا مدام هادا ممكن سوي مرض.. أنتي سوي كذا في بيت.. ماما مريض ما في جيب حديقة..)!

ونظرتُ جيداً إلى من أوصتها أن تقول هذا لي وهي تبتعد في خوف وتقزز غير منتهٍ..

توضأت وسط هذيان أمي عن أبي رحمه الله وعشائه الذي لم يطلبه بعد..

وصليت فوق الثيّل النظيف بسرعة.. أرمق في صلاتي عيوناً قبيحة لفتيات تضحكن بلا معنى.. تهاجمني وألكمها.. ألكمها.. أبصق عليها بلا رحمة..

سلّمت سريعاً وأنا أراقب وجه أمي يتبسم ويتبسّط بغتة..

وتلقي سؤالاً بارع الطيبة:

- (أنتم وش يقال لكم يا هالحرمة)؟!

عجوز تتوضّع فوق فراش قريب.. تلوي فمها وتعقد حاجبيها كأقبح حيزبون ولدت منذ قرن..

تكرر أمي السؤال بصوت أعلى.. (من أي عرب أنتم؟ وش يقال لكم)؟

وقبل أن أهرع لأطلب منها السكوت أو أضع يدي على فمها.. جاوبنا صوت لا حدود لقباحته:

- يقال لنا الله يستر علينا وعليكم..!

هرعت أضع يدي على رأسها وأهمس بقوّة وخوف:

- (يمّه اسكتي.. وش تبين بها.. يمه.. هششششش..).

- (وشو؟ وش يقال لهم؟ وش يقال لكم يا هالأجودية)؟!

زمجر صوت العجوز مع امرأة لا تقل عنها قبحاً:

- (وش تبين بنا الله لا يبيتس)؟

****

هجم الليل على قلبي بلا رحمة.. وأنا أنهض متعثرة بعباتي..

بسرعة أريد بها للقبح أن ينتهي..

ألتقط جوالي.. شقيقتي لا ترد..

أدفع العربة وأمي لا تزال تكرر سؤالها وتمد يديها..

- (عطينا تميرات يا هالأجودية.. عند الله سعة..

سلمى.. وينتس)!

يطردني صوت القبيحتين: (يا الله تكفينا شر من به شر.. الله يكفينا شر عيون خلقه..

حتى التمر يشبحون به.. دوتس مير خوذي عن عينها)!

أدفع بكل قوتي.. نعم حتى يهتز جسد أمي الضعيف..

أبحث عن مكان لا يوجد فيه قبيحون.. ولا قبيحات..

لاح لي خيال امرأة تشبه أختي.. ناديت بصوت عالٍ:

- أمل.. أمل!! يا أمل..

القهر في داخلي جعلني لا أهتم أهي هي، بل جعلني لا وقت لدي لأشك إن كانت هي..

- أمل.. أمل.. أم راكان..

- نعم؟

صوت ساخر ناعم مرق من جواري..

- أمل.. يا أمل..

- نعم..

مع قهقهات مكتومة منقوعة بثقل الظل..

التفت لأرى القبيحات إياهن يتجمعن حول لعبة ويلعقن الـ.. آيس كريم..

لم أجرؤ حتى أن أكرر ندائي وأنا التفت بعين ساخنة إليهن..

خوف قطٍّ متحفز لانقضاض بشع..

كنت في وضع يسمح لي بافتعال مشكلة.. لكنني دفعت العربة باتجاه أختي..

وأنا ألقي نظرة طويلة على القبيحات بادلنني إياها بقحّة لا مثيل لها في الوجود..

كررت الاسم وأنا أدفع العربة وسط ازدحام كبير..

نحن باتجاه بوابة الخروج..

أمل ترتدي عباءتها..

- (لا معلش أختي.. شكلي مشبهة عليك.. آسفة)!!

- لا عادي خذي راحتك!

ارتفع عويل أمي جيداً هذه المرة..

- (أبي عيشة يا بنيتي.. أبي شين أحطه في فمي بس..)!

قبضت على كف أمي وهي تستجديني فيما أهتف في الجوّال في عصبية:

- (ألو.. أمل.. وين الناس؟ خلاص بنطلع ؟

- خالتي جتنا فجأة وما أقدر أخليها في البيت لحالها..)!

- والوعد؟

جاوبني صوت حاد متقطع يعلن انقطاع الإرسال..

يعبث بجوفي.. بتلافيف دماغي.. ينفث في روعي غربة أكثر إرعاباً من الموت..

تندفع أصوات أقبح ممزوجة بأضواء بوابة الخروج.. تنفخ في آذاني المحشوة..

- (حرام عليك جيبي لها شيء تاكله..

- أعوذ بالله عطيها لو تميرة..!

- يالله لهالدرجة ما في إحساس.. هذي أمك..)!!

تتطوع إحداهن وتدس في فمها تمرة سكري..

تومئ أيدٍ كثيرة في وجهي.. وتمتد أصابع طويلة وأكف محنّاة لتهتز في غضب أمام عيني المرتعشتين..

وأصوات كوقوقات الدجاج تصيح في وجهي مذكّرة ببر الوالدين.. والتعوذ من حالي والعقوق.. وأمي تلوك التمرة في نهم بلا حدود..

- لا لا يا خالة فيها سكر.. ما تبلع.. أصلاً ما تبلع..

كان الوقت قد فات جيداً وأنا أمد أصابعي داخل فم أمي التي شرقت بشدة.. سعلت بشراسة وشهقت كما لم تشهق من قبل..

بعد دقيقة كاملة من الشرقة استردت نفساً واحداً أفرغت معه كل ما بجوفها الضئيل..

من بقايا حليب العصر وعصارات معدتها المثقوبة..

على أرض المتنزه.. فوق ملابسي.. وملابسها.. وملابس بعض الحريم..

جوقة من التقزز والصراخ والهروب بعيداً عن بقعة القيء..

- نادوا العاملة.. إش القرف هذا؟

كانت الأضواء أوجع هذه المرة..

والصراخ لم ينقطع..

لم ينقطع .. !

****

نمت طويلاً.. طويلاً..

حلمت بالقبيحات يتقيأن..

ويضحكن..

وينظرن لقيئهن ويضحكن..

يتبولن على أنفسهن..

تنهرهن عاملة النظافة.. بأن يفعلنها في البيت..

تلعنهن إحداهن.. وتنفجر حولهن عواصف من الضحك والقيء والتوبيخ..

رأيت العجوز وابنتها تصعدان جبلاً ثم تنزلقان..

وحريم سود يصرخن في أفواههن: (الله لا يبيكن.. وش تبون.. وش يقال لكم)؟

تمد أمي يديها الطاهرتين إليهما..

تلف غدفتها الطويلة حول كرشيهما..

ثم تخنقهما.. .تخنقهما.. تخنقهما..

****

إليك يا سماءات الجمال..

يا فضاءات الله..

أريدني أنعتق إليك..

بعيداً عن أرض محشوة بالقباحات..

مع روح بيضاء كروح أمي..

حيث تجد ما تبلعه..

ومن يخبرها من أي عرب هو..

ومن يكون لها منيرتا الأحمد..

هناك .. حيث لا تخاف أمي..

حيث لا تجوع..

ولا تحتار في مكان القبلة..

ولا في أمر عشاء أبي.. !

من خطابا الآولين

7

الجميل في حكاياهم وأنا أسمعها من فم إحدى العجائز إنها تقول كل شيء.. وتجمله..
لا تفصّله وتضيع وقتك..
تجعلك تفهم ما تريد (أي الحكاية) مباشرة.. دون حتى أن ترهق عقلك بالتفكير والاستنتاج..
ذلك أنه كان لديهم الوقت كله.. العمر كله.. ليسمعوا..

****

بدايتها هي شور حريم..
حين أتت امرأة سبّابة مشاكل إليها.. تعرض عليها ثوباً جميلاً لا تستطيع شراءه...
في بيتها الطيني الجميل المحمي برجل سريع الغضب شديد الغيرة ساخن الجوع كريم اليد كثير الولائم.. إلى آخره من مواصفات رجال نجد الأولين..
وتبدأ القصة بالتحديد حين تبدأ الدلالة في انتقادها وحشو عقلها المسالم المرتعد بأن تنظر في لبسها.. ولبس ابنتها.. وبخل زوجها.. وكيف أنه يمكن بقليل من العبث أن تشتري درّاعة جديدة.. وتشتري ربما مجولاً.. أو حتى معضداً حين تكون ماهرة وحريصة..

- وما يمنعك أن تكتسبي من ورائه؟ هل سيفطن؟ كل الرجال لا يفطنون!

هكذا غادرتها وقد أعطتها الثوب مرهوناً بأن تدفع ثمنه..

وكذلك تعدها أن تأتيها غداً بزبون يشتري بعض ما يوفره الزوج الغيور الغاضب.. دون أن يعلم الأخير وهو يظن بيته راضياً قانعاً بأن يملأ تمراً وسمناً ودقيقاً كل أيام السنة..

يا سلام.. من كان يحلم بعيشة كهذه؟!

يأتي الأعرابي من الغد وتستقبله الزوجة الخائفة.. تصطنع الفهارة والجرأة والتجارة وهي تأمره مرتبكة مذعورة:

- انقث من هالجصّة(١) !

وينقدها الأعرابي فرانسي(٢) ويدخل الجصة ليملأ حق الفرانسي..

وكأنني أتصور نشوتها.. أو أرى نشوتها في رعشة يديها وهي تقلب الفرانسي الذي لم تره في حياتها.. ولاحين دفع زوجها صاحب المزرعة مهرها إلى والدها.. ليدفعه إلى والدتها..

هل تذكرون كلكم إحساسنا بطعم الريال في أول يوم مدرسي؟ ما لم تكونوا قد تحسستموه من قبل طبعا!

كان نفس شعورها وهي تتحسسه وتشرّحه إلى أثواب عيد وهدايا لأهلها وعطايا للجارات وطلائع للوالدات..

ولكن عمر الأحلام في قصص الأولين قصير للغاية.. حالما يزمجر صوت الزوج الغيور في عودة غير محسوبة..

منذراً بخوف لا نهائي.. خوف مسعور دفعها إلى أن تقفز للجصة الحجرية.. وتغلق بابها على الأعرابي الذي جاء يشتري..

وهكذا (وحسب القصة) يختنق الأعرابي المسكين.. ويموت!

****

الأصعب من أن تخبئ جثة.. هو أن تخبئ جثة رجل.. وأن يكون الفاعل امرأة!

حين كشفت موته داخل الجصة لم يكن هناك من يعينها ليسحب هذه المصيبة ويرميها في قليب المزرعة قبل أن يأتي الزوج.. سوى المملوك الأسود!

وهكذا تستدعيه لينقذها من هول موقف قد يكلفها ليس فقط زواجها وسمعتها.. وإنما حياتها..

المملوك لا يدع ضعف السيدة الجميلة يمر هكذا..

الخوف البشع في نفسها..

هو ملوى ذراع القصة.. والفاصل بين القوة والضعف.. والحرية والعبودية..

هو ما يجعل المملوك مالكاً.. والسيدة تذعن لرغبة أثيمة يمليها عليها المملوك.. وإلا فسيفشي السر للسيد..!

هكذا تختفي جثة الإعرابي.. وسرّه الصغير.. والغلطة الصغيرة التي أدت لموته..

وموتها بين ذراعي المملوك!

****

والأمر لا ينتهي عند حد مرة واحدة..

في كل مرة ظل المملوك يملك سراً كبيراً تراكمت عليه أسرار أكبر.. وفي كل مرة تذعن لرغبته الخاطئة تحت طائلة الخوف اللانهائي..

الآن حياتها وحياة طفلتها على رأس لهب سراج.. تحت رحمة رجلين.. أحدها مالك غاضب غيور.. والآخر مملوك وضيع مستغل مستمتع..

سؤال: ما طعم الورطات التي توقعنا فيها غلطات صغيرة بحجم شور امرأة؟

القصة تصوغ لنا تدخلاً خارجيا.. جعل من كل ما هو أعلاه.. ألماً مقصوداً.. للعظة والعبرة!

تظن البطلة.. (لم يقترح أحد لها اسماً بالمرة.. المهم أنها من نساء الأولين)..

أن السر سيدفن مع المملوك الذي استغل خوفها وسرها أبشع استغلال..

حين تدفعه بكل قوتها إلى عمق قاتل وهو يروّي من القليب..

وهكذا مات المملوك.. واستراحت من الخطيئة.. والسر..

ولم يبق إلا التوبة..!

****

هيهات أن تكون الحياة بهذه السهولة.. هيهات أن تنتهي أخطاؤنا وتموت أسرارنا دون أن تكوينا..

بعد أشهر كبر بطنها.. وتكوّر.. وطوال أشهر الحمل يطرد قلبها المحروق بالذنب.. ألم خوف لن ينتهي..

أيكون الطفل عربياً فتكون خطيئتها قد انتهت؟ وقلبها قد استراح؟

أم يكون أسود فتكون خطيئتها بشعة لا تريد أن تكف عن الكي والتهريج داخل حياتها القصيرة البسيطة؟

ألم يكتفِ الموت منها؟

ألم يقتلها كل مرة كان المملوك يراودها عن نفسها؟

ألم يقتلها كل مرة ينهرها فيها زوجها.. يأكل معها وتأكل بلا روح..

أو يضاجعها وهي ترتعد فرقاً من سرّ رهيب يحصل في غيابه؟

ما أصعب ضلع الدين.. وقهر الرجال..!

****

وهكذا تذهب للبر وبيدها فأس.. .تجمع حطباً للولادة (هكذا قالت لرجلها).. وبطنها يرفس معلناً مجيئاً لا مرحباً به..

والقصة تقول إنها ذهبت.. وجاءت بطفل أسود كالليل..

وحيث أيقنت سواده الذي لا شك فيه.. بكت طويلاً وتذللت لله تعالى أن يغفر لها..

لفته في قماطة وعادت به جثة مخنوقة.. ورمتها في القليب..

سأل الزوج عما في بطنها.. أخبرته أن(ها) ولدت ميتة زرقاء الوجه..

وأن القابلة دفنتها فوراً..

لم يكترث كثيراً وهو ينام وابنته في بشته الصوفي.. طاهرين لم تعلكهما خطيئة.. ولم يكوهما سر.. ولم يطيّر عقليهما خوف..

هي لم تنم بقية حياتها من وجد الخطيئة في كبدها.. وقلق الأسرار في مدفنها..

خطاياها التي دفنتها في القليب.. الصغيرة.. والكبيرة.. والأكبر..

شققت دموع التوبة خديها..

ولكن هل تستطيع لذة التوبة أن تغسل ألم الخطايا التي لا نختارها؟

لا أظنها تفعل..

****

- الجصة: غرفة حجرية في بيوت المزارع النجدية.. يكنز فيها التمر وتغلق بإحكام.
- انقث: النقث هو قطع جزء من العجائن.. والتمر المكنوز.. والأشياء المتماسكة كالطين.
- الفرانسي: عملة قديمة جداً قبل الريال.

لندن

٢٠ يناير – ٢٠٠٨

السرطان

8

أعتقد أن أسوأ أنواع الألم.. هو ما يشاطرك الجميع بكاءه.. لأنك حينها لا تقدر أن تشكو.. ولا يحق لك أن تتأوه.. حتى لا تزيدهم ألماً.. ويزداد ألمك..

كان علي أن أقاوم خوفي كثيراً، وأنا أستولد هذه الكلمات.. لأنطق عن خوفي وأتكلم عما يتحاشى الكثير من الناس والعالم النطق باسمه.. كما كانوا يتحاشون نطق اسم الجن دون تسمية عالية النبرة.. وتلفت خائف حقيقي.. وكما يتحاشون ذكر اسم الحكومة دون أن يخفضوا أصواتهم أو يهتفوا بأن الله يعزهم ولا يعز عليهم..

الناس طالما كانوا يخافون الجن.. ولطالما خافوا الحكومة والسرطان..

لا يذكرون اسم أحديهما تطيّراً.. تحرّجا كأن أحدهم سيثير انتباه الزمن أو المباحث..

أشياء كثيرة يمكنهم أن يبرروا بها تحاشيهم نطق هذه الأشياء..

عندما يتحاشى الناس ذكر شيء ما يعيش بينهم وينهشهم ويتخللهم.. فهم يبتدعون له أسماء كثيرة يلتفون بها عليه ولا يكفون عن الحديث عنه..

كنت أشعر بشعور أحدهم وهو يأتي بسيرة مريض بالسرطان (كما يأتون بسيرتي الآن) في مجلس كبير، يهبط الصمت والحزن والأفكار المؤلمة، فلان يطلبكم الحل، الله يخلف عليه شبابه بالجنة..

الخبيث الله يكفينا شره!

انفراج غير عادي ينسبل في نفس من يقولها وكأنه قد تجاوز خطوط النار الحمراء وتحدّى الجن.. وتغلّب على خوفه حتى من الحكومة.. ومن ثم عليه أن يتعوّذ منه ويستجير بالله تعالى..

كل هذه الأشياء ظلت تاريخاً بالنسبة لي قبل أن أكتشف إصابتي به قبل أشهر، ظللت أقاوم خوفي منه حتى مضى الأمر وصار عليَّ أن أواجهه كما يتواجه الشجعان..

وإن كنت أشك أنه شجاع وهو ينهش من لحمي ويقتات على ألمي وألم أطفالي الثلاثة وزوجتي التي تستعد للترمّل..

لا شيء الآن يستحق خوفي بعدما أعلن الطبيب أخيراً أن استجابة جسمي للعلاج لم تعد كافية.. آلام الناس من حولي تزعجني أكثر من ألم صراعي مع عدو جسمي، ولا أحد منهم يريد أن يتركني أواجهه وحدي دون أن أحمل هم التخفيف عن الآخرين ووعظهم بأن ما حصل لي هو قدري، لا العين ولا سحر بنات أم راشد العوانس ولا حتى الشيشة التي امتنعت عنها أول العلاج.. ومن ثم عدت إليها حين أخفق في أن ينتزع القبيح من أحشائي..

أنا حزين.. بالتأكيد.. وآلامي لم تعد تطاق حتماً.. ولكن ألمي لوجع أمي وأبي وأخويَّ الكبيرين وأخواتي الكثيرات أكبر وأشنع.. ما أوجع من أن ترى الآخرين حولك يتألمون وأنت تذهب إليهم لتنسى ألمك..

أخيراً حلفت عليَّ أمي ألا أقود سيارتي، وأن أعتمد وزوجتي على أخويَّ.. الآن أنا محاصر تماماً بإحراج أمي ودموعها.. وصايا الناس لأبي وزوجتي وأخواتي..

إمدادات كثيرة تصل إلى بيتي كل يوم لتزيد ألم أحشائي ألماً.. ماء زمزم.. رقية.. غسال عتبات وملابس.. حليب خلفات وأبوالها.. وصفات مطبوعة على أوراق بخط غير منتظم..

أهكذا يفعل الألم والحب بالناس؟ هذا هو الجانب الأسوأ الذي لا نراه من الحب

حينما نحب..
على امتداد سبعة أشهر حشدت مشاعري على قوانين الطوارئ.. أحببت زوجتي وأطفالي كما لم أفعل من قبل.. والدتي وأبي وإخوتي.. طلبت أرقام أطباء في أمريكا وأوروبا.. وبحثت حين أعيتنا ذات اليد عن وساطات كثيرة و(حب خشوم) لأفتح ملفاً في العسكري..
كل تلك الأيام مزعجة للغاية.. ولا أريد حتى تذكرها رغم أني أقترب من الموت أكثر.. والورم ينهشني أكثر.. وأملي يتضاءل ليصبح كل ما أتمناه هو أن أعيش حياة طبيعية بلا بكاء حولي ودون أدوية أو قراءة أو أي شيء يذكرني أنني مريض..
اليوم فقط قررت أن أرتكب كذبة.. بأنني شفيت.. بأن ما في داخلي توقف عن النمو.. وأن خلاياي استجابت للعلاج..
نعم ما الذي سيحصل من كذبة واحدة أشتري بها راحتي مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يقضي الله أمره ويأخذ أمانته؟
ولقد أصبح ضميري حين اقترب الموت مزعجاً جداً.. ويحاسبني حتى على حروف الجر والهمزات.. ربما كان هذا أفضل ما في اقتراب الموت.. أنك لا ترتكب الخطايا ببساطة..
وحين قررت أن أكذبها وأن أرتب كلماتي التي سأقولها لأمي وأبي وإخوتي.. وطبعاً زوجتي.. اكتشفت أن قدرتي على الخطايا تراجعت كثيراً.. وأن احترافي القديم للفقش والتأليف لم يعد كما كان..
بكت أمي طويلاً وعانقتني شهقاتها.. وشعرت طويلاً بالذنب وأنا أتخيل خيبة أملها لو عرفت أني كنت أكذب..
يا رب اغفر لي.. فعلتها لكي أحظي بيوم واحد دون شعورهم البغيض وهم يرون الموت يزحف نحوك ببطء.. دون أن يكون بأيديهم شيء غير أن يجزعوا ويعصروا قلبك..
ولا أحد منا لا يخاف الموت.. يكذب أحدنا لو قال ذلك إلا أن يكون مجنوناً أو غير

إنسان..

لكني أريد أن أنساه وقد أحاط بي سبعة أشهر طوال ثقال.. طعمها أبشع من طعم الصديد وأثقل من تباطؤ دقات القلب.. وأوجع من مغصات الورم في الأحشاء..

يا رب اغفر لي ما كذبت على أمي وأبي.. وإخوتي..

سيذبح أبي ذبيحة.. سيدعو الكل فرحة برحمة الله.. سيوفي بنذره.. اقترحت عليه أن يبقى الأمر سراً حتى تخرج نتائج أخرى تؤكد الأمر.. هناك يا أبتي من لا يشفى والناس تحسد الفقير على موته الجمعة..

اقتنع أبي أخيراً بذبيحة صغيرة في التنهات مع إخوتي وأعمامي وخالي الوحيد..

الذين نحبهم.. والذين يعز عليَّ أن أشتري منهم لحظة فرح عارمة بكذبة صغيرة غير متقنة.. مسح لأجلها خالي دموعه وهو يكرر أن الحمد لله..

هرول أخواي وأخواتي ينقلون وينصبون أدوات البر.. وينثرون روائح المكان الذي نعشقه ولا نشعر فيه بالغربة حتى عند الموت..

أحسست بذلك جيداً وأنا أملأ رئتي من هواء البر وروائح الربيع الرطبة.. وهي تتسلل مختلطة بريح الحطب عبر السماوات.. تغوينا ولا تشبعنا كجميلات البدو وملكات أساطير الصحراء..

ولكم وددت أن أصلب إليك أيها التنهات بقية حياتي.. تحتي رملك الرطب وقت الربيع .. وفوقي سماواتك المضببة بالسحاب.. وحدي حتى دون أمي وزوجتي وأطفالي..

يكفيني منك أن تعرفني وأعرفك.. ولا أبقى في دوائر الخوف وردهات الانتظار في المستشفيات ما بقيت..

لم أرد أن تلتقي عيني بعيني والدي وهو يرفع يديه بالسكين والدموع الفرحة تنسكب مع دم الخروف.. وكلمات الشكر والحمد ودموع الفرحين تخزيني أكثر.. وتفسد عليَّ جمال اللحظة..

أقنعت نفسي أن كذبتي كانت حقيقة لأستمتع ببقية اليوم.. تعودت منذ بدأت حالتي تسوء ألا تكون آمالي ومخططاتي أبعد من يومي.. مؤلم وموجع ذلك.. ولكنه حقيقي ويحميك من آلام خيبة الأمل.. وفي أحيان كثيرة.. يجعل يومك يبدأ بدهشة وامتنان وومضة من أمل تقتات عليها مدة يوم واحد..

الآن فقط لا أريد أن أموت.. ليس لأن زوجتي تريدني.. ولا أن أطفالي سييتمون.. كل هذا تدبرت أمره منذ سبعة أشهر..

الآن أريدني أن أبقى في التنهات إلى أن يموت هو ثم أموت.. عيب أن أموت قبل أن يموت كل هذا الجمال..

نسفت شماغي على كتفي ومضيت وحيداً إلى الشمس التي كانت تسطع في غرور غير معتاد في مثل هذا الوقت من العام.. يا لغرورها الحبيب إلى قلبي جداً.. الآن أحس بأني عدتُ مئات السنين لأكون بدوياً يمتد كأرطأة ذات عمر طويل وجذور وريح يمتد مسافات طويلة.. الآن أنا هذا المكان.. هذه الصحراء.. وهي أنا..

ولا أريد من نفسي يا رب إلا أنا.. وهذا المكان..

- (تعال تقهو يا وليدي)

جاءني صوتها الحبيب ينضح أملاً وإشفاقاً.. يا ويح خجلي منك يا يمّة.. ومن نفسي أيضاً أنني لا أملك أن أساطع عينيك وهما تطوقانني لهفة من أعلى رأسي الخالي من الشعر إلى العقال الذي يطوق ذراعي وشماغي الملفوف عليه..

لهفة أم.. وحق لها أن تكون ملهوفة وأصغر أبنائها ذو التاسعة والثلاثين يرحل عنها في عز شبابه وفورة نجاحه..

في القرآن الكريم هي آجال مكتوبة.. وفي أعراف الناس ما زلت صغيراً جداً لأرحل.. وسأترك خلفي أرملة وأطفالاً يستحيل كل واحد منهم إلى قصة حزينة باكية بجذور وشجون طويلة..

جحيم الأفكار هذه يعذبني فوق أوجاع عذابي.. كل هذا يومض عيني لحظة أستوعب

أن هناك ما يسكن أحشائي ويستعجلني لأرحل..

كريهة أنتِ أيتها الحياة أكثر الأحيان.. كوني جميلة مرة واحدة ليس لأجلي.. لكن لأجل هذه التي تومئ يداها المرفوعتان باتجاه السماء حمداً وشكراً.. تصب القهوة بروح شاكرة طيبة ممتنة يظهر طعمها في الفنجال.. يتسرب إلى حلقي في السكرية وهي تذوب في فمي..

شكراً لك يا رحمن أن جعلتني أراها سعيدة هكذا..

أم العيال ترمقني من خلف جلال صلاتها بنظرة أمل وليد.. عمره عمر كذبتي وأنا أعانقها وتبكي فرحاً.. وتقبل رأسي الأصلع ويديّ الزرقاوين من آثار الإبر..

(لا يا بعد إيدياتي).. أبتسمُ وأنا أتذكرها تقبل مواطن الإبر وتبللها بدموعها.. تتمنى لو كانت فيها ولا فيَّ..

يا الله.. رائحة الذبيحة تملأ المكان.. وصوت القدر يهدر من بعيد.. ولأول مرة منذ سبعة أشهر يضحك الجميع صدقاً ويرتشفون العَقود× ويتخاطفون الحميسة بلذة حقيقية..

أكل ذلك الوجوم كان بسببي؟ لمَ أخبرتهم من الأساس؟ لمَ كان عليَّ أن أنتزع منهم هذه الأفراح التي بلا حدود حين يرقّصهم ربيع التنهات؟

أولادي وأولاد إخواني وأخواتي يتراكضون حولي والجنة تكاد تومض بين أيدينا..

وضحكاتنا تعمر المكان وتسمّر الزمان.. وتجعل الشمس تبتسم معنا وتتنازل عن غرورها.. لتطبع على أفواهنا قبلات شهية تنتثر داخل أرواحنا ونحن نستقبل القبلة ونصلي العصر..

ما الذي يجعلني أفقد الأمل وقد رأيتهم كلهم يعتقون من ألم استعبدهم سبعة أشهر؟

تبّاً للمرض.. وتبّاً لليأس حين يجعلني أتنحّى وأترك وظيفتي وأركض داخل أروقة المستشفيات.. وأتلهف كل مرة لتخرج نتيجة العلاج..

بعد اليوم لن أذهب للمستشفى.. لن أزور أي طبيب ولن آخذ أي علاج.. ولا حتى مسكنات الألم.. سأعيش كما يجب أن أعيش.. وحين يحين وقت رحيلي سأودع

الجميع ببساطة..

قررت كل ذلك وقد اختليت بالشمس وهي تهبط باتجاه الرمال.. كم سأفتقدك أيتها الشمس..

أفلحت هذه المرة أن أتغلب على مخاوفي من عالم ما بعد الموت.. خلقني الله رجلاً عملياً دائماً.. وبهذا المنطق.. لدي بقية عمري لأفعل ما كان علي فعله من قبل.. أقرأ القرآن الكريم وأصلي وأصل الرحم وأسامح وأحلل.. ليس كمن يساقون إلى الموت وهم ينظرون.. ولكن كرجال "صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا"..

يروق لي أن أبدو كرجل صالح في عين نفسي.. هذا يجعلني أقرب إلى الله تعالى أكثر مني كرجل خاطئ منبوذ لا يجرؤ على الاقتراب من أبواب الرحمن..

انهمرت دموع أمي فوق وجهي وأنا أريح رأسي في حضنها.. رائحة حنائها لم تزل رطبة تخترق تلافيف دماغي وتصيبني بنشوة غريبة.. وإنني الآن لست خائفاً من الموت..

أجمل ما تحصل عليه وأنت في حضن من تحب أنك لا تخاف حتى من الموت..

احتضنت كفيها وابتسمت طويلاً لنفسي وضحكات أخواتي وإخوتي من حولي تصيبني بدفء لا محدود.. هكذا أريدكم.. سعيدين بأفراح لا تنتهي يا من أحبكم..

أغمضت عيني وامتد شريط أيامي للخلف طويلاً بمغامرات لم تنته إلا بإعلان إصابتي بالمرض.. الآن ليس وقت الندم والتوبيخ.. ولكنني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما صرخت في وجه أمي.. ولما ضربت أختي ولما تحديت أبي.. ولما تشاجرت مع جاري وقاطعت ابن عمي.. ولما حرمت زوجتي وصفعت أطفالي.. ولكنت ألثم يدي أمي كما أفعل الآن وأستمتع بحياة دافئة بين ذراعي من أحبها.. ولكنت أدلك قدمي والدي المتشططبتين.. وأرى فيهما تراب الجنة ينتثر بين يدي..

ولربما رأيتني أساعد أخي الكبير في قسط سيارته.. ولربما رأيتني أسعى في قبول أختي المطلّقة في الجامعة..

ما أجمل الحياة حين نكون بدواً.. حين نفهم أن في الحياة قطعاً من الفردوس ومواطن ربيع لا تنقطع .. وأن علينا أن نتبع مواطن القطر كما يتتبع البدو.. ونرفع رؤوسنا للسماء دوماً.. ونقول يا رب..

أما حين يشتد القيظ فنقطن.. وننتظر إلى أن تنفرج زفرات غضب الصحراء الملتهبة..

حياة بفصول أربعة.. من قال إنه لا توجد في صحارينا أيام جميلة؟

قهقهت أنا وزوجتي ونحن نكررها بعدما مضت على رحلة التنهات سنوات أربع أنجبنا خلالها بنتاً..

ونبتت خلالها صلعتي وصارت شعراً زيتياً مليئاً بالشيب كما كان..

لقد كانت كذبة صغيرة.. ويوماً جميلاً لن ننساه..

لندن

سبتمبر ٢٠٠٨

البنغالي..

٩

أسوأ ما في الحياة قد يكون أجمل ما فيها بعد حين..

حين نبقى لنرويه لمن جاؤوا بعدنا ونسقي القصة بدمع الاعتبار.. ولو كنا أبعد ما نكون عن الاعتبار..

كنت أبلغ الحادية عشرة من عمري.. حين كنت أهرع كل صباح ولما أغسل وجهي وقذى عيني بعد لأعبث بعبدالقادر.. عامل مزرعتنا البنجالي الهزيل..

لست أدري أي متعة كانت تملؤني أنا وابن عمي في حشو أفواهنا بالسخرية بهذا الكائن.. وافتعال المقالب التي نقطّع بها أيام عطلة صيفية ملتهبة مروّعة في مزرعتنا على طرف الديرة..

لم يكن شيء أكثر إبهاجاً من منظر عينيه الحمراوين وهو يرمقنا بقلة الحيلة أثناء عمله..

وقد مر من أذنه حجر أو لطخ ثوبه المتسخ قطعة طين.. يزجرنا بصوت عال حاد لا يفزّع الطير.. ويضمن لنا حفلة ضحك يومية لا تنتهي حتى بخيزرانة عمي وهي تهوي علينا لردعنا وتفريقنا..

ولا بوعظ أمي وهي تخوّفنا بالله وانتقام العمال بالقتل والتقطيع للصغار المؤذين..

كنا أشقياء ومصدراً للأذى وحسب.. ولا أبعد في عقل أحدنا من ضحكة يوم ومباراة

عصر مملوءة بالتراب واللعان والشتيمة.. وشاورما تقطر دهنا مع قارورة بيبسي في نهاية اليوم.. كنا قبيحين وأكثر.. طفلين في الحادية عشر وأكثر..

عبدالقادر كان يصلي كل يوم في المسجد.. وكنا نتعمد أن نصفّ بجواره لكي نسد أنوفنا ونشعره بتقززنا من رائحة عرقه النفاذة فيحرج.. ونحدث حركة ضاحكة جداً تربك صف الصلاة الوحيد في مسجد القرية..

حين ضربنا عمي بالعقال تلكم المرة بسبب ما أحرجناه.. لمحنا اتقاد عيني عبدالقادر وهو يخرج صامتاً لعمله.. عينان حمراوان وظهر هزيل يركز ثوباً واسعاً لا يكاد يظهر تحته من لحم الدنيا شيء..

قررنا أن ننتقم من تلكم النظرة الشامتة بنا.. وأن نخطط طوال الليل كيف سنفزعه صباح اليوم التالي ونسكب عليه ماءً مثلّجاً من البرّادة..

اعترض ابن عمي بأن هذا سيكون أفضل ما سيحصل عليه هذا البنجالي

وهو في عزبته الساخنة.. لماذا لا نسكب عليه تراباً ساخناً من تراب المزرعة؟

كانت أختي الصغيرة تتسمع لخطتنا وتهددنا بفضح أمرنا لأمي وأبي وعمي.. لم نأبه لها وقد راقت لنا تماماً فكرة التراب.. وكيف سيكون منظره وهو مبتل بالتراب ويجري خلفنا لنضمن ما يكفينا لمدة أسبوع من الضحك والعبث..

لم أنم الليل وأنا أفكر في الخطة.. وحين ملأ عيني النوم رأيت عبدالقادر يرمقني بعينيه الحمراوين.. يقبع في ركن غرفته الساخنة في طرف المزرعة.. يعبث بأنفه ويعدّل وزرته القذرة..

لم أكرهه؟ لا أعرف..

أَلأنه يعبث بأنفه دائماً؟ حسناً.. أنا أفعل ذلك دائماً..

أَلأنه أسمر وهزيل؟

أَلأنه بنجالي؟ ربما نعم..

المهم أنه لا أمتع في الدنيا من إغاظته وجعله مادة ضحك.. لأن صوته كان أصحل حاداً

كصفير طائر مخنوق.. ومضحك.. ولم يكن يتحدث العربية جيداً.. وهذا يزيد الأمر كوميديا..

إنه وللحق لم يكن يتحدث كثيراً.. كان صامتاً (وكان في الحلم صامتاً أيضاً).. حين يتحدّث قليلاً فهو لكي يستلم بريده من عمي.. وحين يستلم راتبه في ملحق بيتنا، حيث لا يكاد يجرؤ أن يجلس رغم إصرار أبي.. أو يشرب (بيالة الشاهي) مع عمي الذي يحدثه بصوت خفيض ومن ثم يهز رأسه في قلة حيلة ويربت على كتفه العظمي المبقّع بالطين والتراب..

العجيب أن عمي وهو مالك المزرعة وطالما كان يسوس العمال قبله.. كما تساس الحمير.. إلا أن عبدالقادر الصامت بعمله الذي لا يكف.. كان يجعله يهز رأسه (تضامناً أو تعاطفاً أو أي شيء)..

عبد القادر من البارحة يعمل بلا توقّف.. وحين أخذنا له العشاء كان يصلّي ويبكي ويشهق..

هل تظن ذلك جعلنا نشعر بشيء.. أو جعلنا ننسى نظرته الشامتة بعد الصلاة اليوم؟

طبعاً لا.. ونحن نضع الحلّة في الغرفة وننتظر أن يرفع رأسه من السجود.. فكّرت أن أركله وهو ساجد.. ولكن ابن عمي أبى ذلك ووعدني بخطة انتقامية جيدة..

ومنذ أسبوع وأكثر كان عبدالقادر يغدو ويروح على عمي الذي كان يلوح بيديه في قلة حيلة ويقول: "ما في.. والله يا عبدالقادر ما في.."،

هل عمي يؤخر راتبه؟

لا يمكن.. يرد ابن عمي وهو يفترش الدوشق أمام المكيف..

أبي لا يمكن أن يأكل حق أحد.. لكن هذا الجرذ بالتأكيد يريد زيادة راتب..

أو يريد غرفة أفضل..

(ما يخسى إلا هو.. هو زي الجرذ.. هالغرفة لو في بنجلاديش ما يسكنها ملك من ملوكهم..

على فكرة بنجلاديش عندهم ملك)؟

غفونا متدثرين ببراد المكيف على حلم الخطة البهيجة..

وانسلت شقيقتي متوعّدة أن تخبر والدي..

ولم أر في النوم أكثر من وجه عبدالقادر متحجراً على عينين حمراوين تطفحان بكراهية وألم يكفيان لتلويث الدنيا كلها..

ولربما طال أمد الحلم فجعلت أنظر في عينيه الحمراوين حتى وجدتني أغرق وسط طوفان من الألم والضيق والمرارة..

وشيء كدت أتذوقه في فمي وأنا أغوص في عينين بامتداد قلب إعصار أو قاع دوامة مائية.. تشفطني باتجاه أصوات مريرة وتنهيدات..

وهم.. أكاد أشعر بثقله فوق قلبي الصغير يدق بانتظام ككتلة حديد صدئة باحمرار عيني عبدالقادر.. ثابتة راكدة كجمود عيني عبدالقادر وشرودهما..

أغضبتني قطرات الماء وهي تهطل من ذراعي والدي.. وهو يحاول إيقاظي وإيقاظ ولد عمي للصلاة.. رأسي ثقيل ولا يريد أن يتحرك من مكانه.. ولا ابن عمي وهو يتقلب (شخيراً):

طيب طيب.. رادّاً على أبي وهو يطفئ المكيّف: قوموا الصلاة.. الله يخلف..

فتحت نصف عيني.. أدرت عيني قليلاً قبل أن أكمل نومي أعمق مما نمت..

وأكثر إزعاجاً مما غصت في عيني عبدالقادر..

أحلام طويلة وكبيرة.. وأصوات صراخ كصفير الطيور المخنوقة.. وبعضها مخلوط بعربية مكسّرة مرت علي وسمعتها في نومي (وأظنها مرت على ابن عمي كذلك)..

حين هرعنا فزعين كانت الشمس قد توسطت السماء.. وعرقنا كان يتصبب حرّاً وزهقاً..

هرعنا بقمصاننا وسراويلنا.. بلا ثياب لنرى ما الذي كان يحصل..

أمي كانت تمسح دموعها وتقف خلف الباب ترمق من خلف جلالها..

كان عبدالقادر يجري كمجنون في أرجاء المزرعة وبيده مظروف بريدي..

يصرخ في لوعة بحجم السماء والأرض..

يحثو التراب على وجهه ورأسه ويصرخ بلا وعي.. بلا انتباه..

يستصرخ الأيام والآلام التي قضاها في مزرعتنا يجمع نقوداً لعلاج زوجته..

أبي وعمي يرمقانه بقلة حيلة صامتين..

شقيقتي تهرع لأبي وتشير إلينا أننا من سكب التراب الساخن على رأسه وجعلناه يجن هكذا..

ينهرها أبي لتهرب وهو يمسح دموعه بطرف شماغه..

- ماتت حرمته!

وكان ينتظر بريدها الأسبوعي منذ أكثر من شهر..

ماذا تساوي الأيام التي قضاها عاملاً محتقراً في حر الشمس السوداء في كبد السماء..

تنظر إليه بصمت.. وبشماتة تتلهّب أكثر.. تصفع وجهه الأسمر الفقير الهزيل..

تسخر من فقره وشقائه.. تحتقره كما احتقرناه..

تصبب عرقه وتصهر جبهته اللامعة وصلعته..

هو يصرخ بصوته الأصحل.. الحاد كأصوات العصافير المخنوقة..

يحتج على كل الأشياء التي يكرهها وتكرهه..

على القدر.. على الأيام.. يحتج على الشمس والصحراء والتراب..

على الطين.. ينظر إليه صامتاً بارداً..

على النخيل التي لقّحها وعانقها ترمقه في غرور ولا مبالاة..

على رؤوس البرسيم والشعير تطالع بعضها وترقب حسرته وتعود تهزها الرياح وترقصها..

كل شيء يكره عبدالقادر..

كل شيء لا يحس به..

كل شيء من حوله يمضي ويجعله يصرخ ملتاعاً وحيداً..

يفتح للكائنات حوله يديه الملهوفتين.. يرسل إليها لوعته ويصرخ..

وكأنه يستعطفها أن حنانيك..

يجمع ما تسعه يداه النحيلتان.. تراباً يحثوه على رأسه..

يصفع به وجهه.. يحقن به عينيه..

(كفاية يا حر الأيام.. كفاية يا عذاب البشر)..

لم نعد نستبين إلا عويلاً ذاهلاً.. لم نعد نراه وهو يذوب في حر مزرعتنا..

يتبخّر ويغلي كما تغلي جزيئات الهواء على امتداد البصر في عز القيظ..

يختفي.. يصبح لا شيء..

أكثر من بنجالي.. كنا نعبث به..

غرفة الفئران

10

محشورات في مرايل صغيرة بأحجامنا الصغيرة.. ساعات طويلة تمر بنا لا نحرك أذرعنا الملفوفة على بعض ونحن نستمع في ملل لا ينتهي.. وروائح يجلبها حر شديد لفصلنا المفتوح على ريح سموم تلفحنا ونتنهد صعداءها..

لم يكن في فصلنا حتى مروحة.. ولا حتى مكيّف بلا وجه مثل "ثاني ط".. أخبرتنا العريفة وهي تعطينا موعظة تهديدية أنه في العام الفائت كان هناك مكيّف، وأن فتاة شقية رشت عليه الماء وانفجر.. وأنهم أخذوها لغرفة الفئران.. وفصلوها بعد ذلك..

كانت العريفة.. رعب الحصة الذي لا ينتهي من خيالاتنا الصغيرة.. ورقتها المنزوعة من النصف تتربص بكل همسة.. وكل حركة من دون إذنها..

وأبلة نمشة كانت قد عينتها يدها اليمين وعينها المفتوحة على الدوام وأذنها الملقاة.. باعتبارها أطول من في الفصل.. وأقدرهن على القسمة وأطولهن صوتاً ولساناً..

- واكتبي يا ريما اسم أي بنت تتحرك أو تتنفس..

وكأننا كنا بحاجة إلى مزيد من الخوف والإرعاب أكثر من صوت مسطرتها الطويلة وهي تفرقع فوق أكف الكسلانات والمشاغبات وعدوّات العريفة.. ومن كتبت أسماؤهن مكررة..

أن يكتب اسمكِ فهذه مصيبة اليوم.. ووعد بعقاب أليم.. وملاحظة على دفتر المتابعة..
ومزيد من الحقد سيتكدس في قلوب صغيرة لا تعرف إلا السواد أو البياض..
مرة ضربت أبلة نمشة طالبة وكسرت المسطرة على يدها.. لم تتحرك يدها بعدها ولم تحضر أمها حتى لتشتكي.. وهكذا لم أفكر أن أستفزع أمي كي تجد لي حلاً في رعبي اليومي.. والبلل الذي يتسرب لثيابي الداخلية كل مرة يعلو صوتها أو تستل مسطرتها وهي تمسك ببطنها الثقيل على وشك الانبجاس..
لا يمكن لأبلة نمشة أن تكون طيبة أو من أهل الجنة.. إنها أول ما استهلت به درسها الأول وهي تتحسس بطنها الثقيل أول العام الدراسي القبيح:
- واللي تشاغب أو ما تحل الواجب بنزلها المديرة وبعدين يودونها لغرفة الفئران..
قصة غرفة الفئران أطول من سواليف بنات الابتدائي.. وأكثر إرعاباً من هواجس تسكن أجسادهن الصغيرة وهي تتراكض وتتقافز في ساحة مدرسة صغيرة..
وفي عقلي الصغير كانت هناك قصة طويلة بنيتها حول هذه الغرفة..
إن أبلة نمشة وحدها هي من افتتحت هذه الغرفة.. بنتها بكرشها الثقيل.. ثم أحضرت الفئران القذرة والجرذان وحشرتها وجعلتها تتقافز فرحة سعيدة في انتظار لحم الصغيرات في هذه الغرفة الرمادية..
وجعلت فيها سلاسل وحبالاً كغرف التعذيب التي تظهر في مسلسلات التلفاز التاريخية، وأكاد أقسم إن أبلة نمشة صممت السلاسل لتلائم أيدي الصغيرات المنكوشات الشعر..
كله لحبس التلميذات الخسيسات واللاتي لا يحللن الواجب أو يظهر في شعورهن أثناء التفتيش اليومي في الطابور لسبب أو لآخر القمل والنمل.. (كانت تقول لنا إن هناك طالبات توجد في رؤوسهن مستعمرات نمل، وكنت أتخيل ذلك وأمنع نفسي من التبول خوفاً)..
ما طيّر صوابنا ونحن نستمع لها تتحدث بساديّة بالغة وتلذذ كبير، وتنسج خيالاً أسود

أقبح مما في عقولنا عن غرفة الفئران:

- وحين يأخذونك إلى غرفة الفئران يدهنون يديك بصمغ الفئران حتى تلتصق بك..

وإني لأتذكر كيف كانت ابتسامتها المتلذذة تشق وجهها النحيل ببطء، وهي (تمزمز) كلماتها بتشفٍ.. وترمق أصغرنا حجماً وأكثرنا بؤساً (سامية) تشهق وتبكي رعباً شديداً..

ذلك أن سامية (المشاغبة والكسولة في القسمة) كانت أول من سينزل لغرفة الفئران الأسبوع القادم ما لم تحسّن مستواها..

إنها ولسوء حظها حتى لا تمسك المشابك شعرها الخشن الأجعد.. والذي يتطاير بعد الحصة الأولى ليصبح منظرها رثاً و(غير مرتب)..

لم تحصل سامية يوماً ما على شريطة الطالبة المرتبة.. ولم تحصل عليه أي من الرثات وذوات الشعر الأجعد والوجوه الحزينة القبيحة..

لم تحصل عليه يوماً إلا (ريما وشلتها من الدافورات) ذوات الشعور الحريرية.. والمرايل المصقولة.. والعلاقات الجيدة مع الأبلوات..

لا أظن شيئاً يمكنه أن يضاهي رعب منظر كرش أبلة نمشة يتمايل خلف الباب، أملسَ قبيحاً وعليه أصابعها النحيلة المنقوشة حناءً، وعودها النحيل وهو يمسك بهذا الحجر الكبير المتماسك داخل (جلابية) زرقاء يوحي إلى طفلة (مثلي وقتها) أنها ستختنق..

أن (شيئها) المتكوّر الذي يختبئ في ثوبها سيبقى طوال الأيام والسنين والدهور، وأن غضبها المستمر له معنى، أو على الأقل لم يحدث من اللاشيء..

إنها محتشدة بكل شيء كريه.. وإنها لن تتخلّص من أي شيء كريه..

في ذلك اليوم لم تعرف سوزان المصرية توحيد المقامات، وحين انحنت لتنظر في دفترها الأشهب المتسخ عاجلتها بصفعة في الرأس، ومن بعدها أخرى على الخد، ومن بعدها شدّت جديلتها المطاطية المجعدة الشقراء لتنهال على كتفها بمسطرة وغلّ يفوح من ثقل بطنها الكريه.. فيما كانت المصرية ترمق صامتة هذا الوجه الغاضب الذي يصفع بتشفّ

دون تعبيرات.. سوزان المصرية كانت بلا تعبيرات أيضاً لحظتها..
لم تتأوه أو حتى تحاول شد يدها لتخليصها من مسطرة الأبلة حتى انتهت..
وحين انتهت الأبلة وكان الكل يرمقها خوفاً وذعراً..
فتحت فماً قبيحاً يتحدّث عن فصلنا غير المؤدّب وعن المشاغبات والكسلانات اللاتي لا يحسنّ توحيد المقامات واللاتي (تنتكش) شعورهن ولا تعتدل (أبّاتهن) على رقابهن الصغيرة..
إنه يوم أسخن من التهاب مسطرتها الخشبية على أيدينا وهي تصفّنا باتجاه غرفة الفئران قائلة إنها لم تعد تحتملنا أكثر..
سامية تمزّقت بكاءً.. وسوزان كانت تأكل أظافرها بعيون صامتة مفتوحة على الآخر ذعراً.. وأكثرنا لم تجرؤن على البكاء ذعراً.. فبعد دقائق ستوضع وفقاً لسيناريو أبلة نمشة على أيدينا طبقات من الغراء لتلتصق الفئران بنا قبل أن تأكلنا.. وأما أنا فقد ابتلت ملابسي الداخلية ونحن نسير باتجاه الدور السفلي تحت صرخاتها المفزعة ووعيدها المرير..
بغتة توقف كرشها عن التمايل البطيء وافترّ ثغرها المدهون بالروج السحري عن ابتسامة مجاملة عريضة.. حين توقفت أمام المديرة وهي تقهقه فخورة بمعلّمتها الصارمة:
- (علام تسيل أنوفهن وتشهقن هكذا، إش بتسوين بهم)!
وتجيب أبلة نمشة بزهو معلم صارم مكتوم: (هذولي المشاغبات بنزلهم لغرفة الفيران يا أبلة نوال...).
ويرتفع عويل الطالبات.. وتبدأ سامية تهذي وقد طار صوابها: (أبلة الله يخليكي.. الله يخليكي.. الله يخليكي).
ويشق صوت العويل قهقهات سادية تطلقها المربّيتان الفاضلتان.. وذات الكرش تشرح لذات الحدبة.. كيف أن المسطرة أتعبت يدها وأن غرفة الفئران لا بد أن تقوم بعملها..
خيّل لي وأنا أسمع شهقات سامية التي كانت تهز جسدها الضئيل كتشنجات عنيفة

ستقسم حجابها الحاجز أو رئتيها، وقد كنا تعلمنا للتو تشريح الجهاز التنفسي..

وأتذكر جيداً كيف كانت عيناها تشخصان في ذعر لا نهائي.. وهي تتخيل أنها تسير باتجاه موت على أسنان الفئران..

وأخيراً شق ضجيج الممر المملوء بالأجساد الصغيرة رائحة قيء نفّاذة تفرّق على أثره جمع الصغيرات.. وقد سدّت كل واحدة أنفها وقفزت: سميرة.. سميرة ..يع .. يععععع ..

يمكنني أن أتذكر وجه أبلة نمشة الأحمر خوفاً وغضباً.. وكرشها يرتج لإسعاف الصغيرة من آخر الفصل.. التي فقدت وعيها ذعراً وبدأت في التقيؤ وارتمت على الممر..

يمكنني أن أتذكّر أكثر حدبة المديرة وهي تدبّ ببطء لتصرخ على الفرّاشة بتقزز لتأتي وتنظف المكان.. وتأخذ المريضة لغرفة التمريض..

أكثر منه جداول المخاط والدموع التي كانت تجري على خدود الصغيرات وأفواههن..

ما لن أنساه بالتفصيل هو صوت سامية وعيناها المتسعتان ذعراً.. يهتفان وهي تكاد تقفز شهيقاً وتشنجاً:

- (الله يخليكي.. الله يخليكي)..

لندن

يناير ٢٠٠٩- ٢

رجل لا يحب..

11

والمشكلة أنه وسيم.. ليس تلكم الوسامة الصارخة.. وإنما التي تكفي لتجعلني أحبه بألم..

وأنه رجل صالح..

وما أفظع أن يكون الرجل صالحاً بعض الأحيان..

حين يستيقظ غدوة.. يبتسم.. يتناول إفطاره.. يطبع قبلة عاجلة ويعكف شماغه فوق كتفيه ويمشي..

تغدو الدقائق بانتظار هذا الذي لا يحب صلبة.. وتكاد تتقاطر من السقف.. تكاد الدقائق تظهر في دقات القلب.. والتفاتات العين نحو الباب بانتظاره..

ونقرات الأصابع فوق جهاز التحكم.. حيث لا يظهر وجه في التلفاز لا يذكرني به..

****

لا يعقل أن يكون الحب كذبة كبرى.. من أنا حتى أفنّد آلاف الأوراق والأبيات والآهات التي احترقها مئات الرجال قبل زمني..

من أنا حتى أقول إن الرجال كلهم.. لا يحبون.. كرجلي الذي لا يحب؟

لأن من عندي لا يحب.. لا يعرف الحب.. ولا يرى حديثي في الحب أكثر من كلام مسلسلات..

أحقاً تبلى القيم حين نفرط في الحديث عنها؟

نعم.. ربما.. ربما أزرى بالحب تفنن العشاق..

ربما جعلنا نكره الحب ازدحامه حولنا في الإذاعات والمجالس والمجلات والجرائد وكل ما يمكنك أن تلتفت إليه أو تقع عينك عليه.. كله حب..

ولذلك جعله زوجي أرخص من جريدة.. وأكذب من دعاية.. وأكثر إثارة للضحك من فيلم هندي..

****

لا هدف واضحاً في حياة زوجي..

انشغل بالأسهم فترة.. وثم عاد ليشرف على أعماله الصغيرة..

ملل لا ينتهي.. مهما حاولت معه بالخروج مع طفلتيّ وشغالتي.. يظل هناك شيء ناقص لا يريد أن يكمله..

- (وين الناس حبيبي؟

والله مشغول.. مشغوووول..)

صديقتي لا تنفك توبخني بأن أكون شكورة.. وأن الكثيرات يتمنين ربع زوجي الذي لا يحب..

الذي لا يبخل عليَّ إلا بنفسه..

أحضرت لي صديقتي لعبة الحب..

رومانس تجاري جعلني أهتز ضحكاً حتى قبل أن أفتحها..

تعليمات اللعبة: هيئي جواً رومانسياً قبل البدء..

أتقصدون الشموع والحركات "النص كم"؟

(طب يالله.. شعللنا الشموع.. وطفينا اللمبات..

وانتظرنا الحبيب الذي دخل بابتسامة ساخرة وهو يقول: اش مقعدك في هالظلمة)؟

****

لا فائدة من نفخ النار في رماد لم يشتعل أصلاً..

هو هكذا ..خلقه الله هكذا..

****

رجل لا يفهم.. همست له مرة وهو يتابع شاشة الأسهم حتى لتكاد عيناه تغادران وتمتزجان بالألوان في شاشة حاسوبه:

حبيبي.. احملني على يديك..

- ها؟

يرد لسانه – فقط - مائلاً لليمين، أقصد باتجاهي..

بعد دقائق طويلة كررت فيها طلبي واعتقدت أنه قد ارتحل إلى عالم آخر.. زمجر بفارغ صبر:

- (وأشيلك ليه؟ احمدي ربك عندك رجلين)!

انتهت ليلتنا بأن نمت في غرفة طفلتيّ.. حكيت لهما قصة الأميرة النائمة والأقزام السبعة.. ونظرتا إليَّ ببلاهة وضحكتا.. وضحكت معهما ثم نمنا سوياً..

وهكذا تبدو الأمور أحسن..

****

رجل لا يعرف.. كان يتعلل بأنه لا يعرف حين أبكي طويلاً لم أنت لست كالآخرين..

ولست كأزواج صديقاتي؟

أهي أنا أم هو أنت؟

يرد بعجل وهو يضرب أزرار الحاسوب باتجاه سهم: (يمكن يكذبون عليك.. ما في رجال

يسوون كذا إلا في الأفلام الهندية)!
ويصمت قليلاً وعيناه تحفران منتدى هوامير البورصة: وأنا ما قد قصرت عليك بشيء..
والحقيقة.. أنه لم يقصّر علي بشيء ما..
كل شيء أطلبه يتحقق آلياً ببطاقة صرّاف.. من الهدايا.. وحتى القبلات..

****

حين انهارت السوق انهار بيتي.. وأصبح شبح زوجي يعبر أبيض اللون من سماعة الهاتف وحتى غرفة المكتب..
صار كالحاً وغير وسيم، واكتشفت فيما بعد أنه استعمل حبوباً تقاوم الكآبة ورماها في الزبالة، حيث كادت تأكلها بنتي..
سافر قرابة الأسبوع وقلت في خاطري إنه ذهب لينتحر كما سمعت من ألسنة النساء..
الحمد لله أنه عاد بعد الأسبوع أكثر تجهماً..
عاد وهو ليس هو.. وما زال ليس هو.. وأنتظره أن يعود..

****

نعم.. يقتل النساء في بلادي المسلسلات والأفلام..
ويقتل الرجال في بلادي الأسهم..

****

وقتلني أنا رجلٌ لا يحب..
أو أنه لا يعرف كيف يحب..!!

لندن

٣١ أكتوبر ٢٠٠٨- ١١- ١

كبسة التفصيل

12

كان عمري وقتها لا يتجاوز الحادية عشرة، والحادية عشرة (في زمنها) كانت تعني (حرمة) بدأت على الأقل بلف جلباب على جسدها الصغير.. جسدي لم يكن صغيراً وقتها للحقيقة.. ولكنه كان على كل حال جسداً مضطرباً مغضوباً عليه في البيت وفي المدرسة وفي الشارع.. حتى نظرات فرّاش المدرسة لجسدي كانت حقودة بغيضة..

ولست أدري ما السبب؟!

كانت أكبر مغامرة قمت بها في حياتي.. إي وربي..

وإني لأتذكر طعمها.. وطعم الغبار في فمي.. طعم الـ(خطيئة) بين جدائلي وهي تهتز وتطير ركضاً في الطريق..

كان يوماً صيفياً بغيضاً يبتدئ بالحر وروائح الأفواه المستيقظة من النوم.. وأيدي المعلّمات تتدفق من بوابة المدرسة ترفع العباءات الفضفاضة المغبرّة عن تنانير كئيبة متثائبة، وتكشفن أغطية الوجه عن حواجب معقودة وعيون عليها آثار الليل، وشفاهٍ متيبسة لم تدهن بالروج بعد..

حين قابلت منى بنت جيراننا في الصباح الأجمل من الصباح الباكر.. وأنا أتساءل إن كانت قد رأت ما حصل لـ(سالي) في حلقة أمس:

- الآنسة مينشن غضبت وكادت تضربها لأنها لم تخبرهم أنها تعرف الفرنسية، لكن أنقذتها الآنسة إيميلي من الضرب.

ولعمري إني كنت أنطقها بخوف ورعب وخجل، فـ(سالي) على الأقل كان حجمها صغيراً وهي تضرب، لم تكن بحجم امرأة ببراعم أنوثة خجلة وهي تمد يدها لأبلة أو مديرة لتلسعها كما كنّا.

وكانت سالي على الأقل جميلة جداً، ولم يكن لها ضفائر غليظة مهملة أشبه بقرون البقر، ولا كان وجهها مبثّراً بحبوب حمراء مخجلة لا ترحمها مسطرة ولا تكرمها مديرة..

ونجلس على رصيف الساحة في ظل المبنى في انتظار طابور ممل، وفي خضم هذه الذكريات حول سالي والمسطرة والضرب هجمت فكرة فجة قبيحة في رأسي:

- اليوم عندنا حصة خياطة!!

وبطريقة لا تكاد تنكرها تشهق (منى) وهي تلطم الخد الأيسر (وهو الأيسر دائماً): أي والله عندنا، نسيت أجيب أغراض الخياطة!!

ماذا نفعل الآن؟!!

بدأت كعادة الطفلات تلوّح بيدها اليمين في رعب وحسرة: يا ويلنا.. بتكسر أيدينا!

وخزي هذا التكسير وحده يكفي لأن أتمنى لحظتها أنني لم أخلق، خجل منظرنا وهي تسخر من طولنا وتهاجم أنوثتنا بفظاظتها البشعة!

- سنذهب إلى البيت ونحضرها!

هتفت في أذنها وهي تهش ذباباً بذيئاً يطير حول فمها: ماذا تقولين؟! (من جدك أنتي)؟

شجعتني وهي تسحب يدي: (يالله بيوتنا قريبة والله يمدينا قبل الطابور ما أحد يدري عنّا)!!

كان هذا بحد ذاته جرماً لا أتخيلني أفعله.. عندما تدخلين المدرسة فأنتِ لا تخرجين تحت أي ظرف إلا بعد نهاية الدوام أو محمولة على نعش أو نقالة.. هكذا هو القانون!!!

- والأبلة المناوبة..

كان كرسي المعلمة المناوبة خالياً ومغرياً بأنها اللحظة.. وهي حقاً اللحظة..

- (ونخلّي شناطنا)!!

لم تترك لي فرصة التفكير.. فقد سحبتني وأخرجت رأسها ذا القرنين والشريطتين وخطت خطوتها، وخطوت.. من بعدها طبعاً..

لعلّك لا تدرك شعور تلك اللحظة.. ولأن اللغة ربما لم تبدع كلمات مناسبة لشعور كذلك فإني لا أتصدى لهذه المهمة..

وجدتني وإياها نطير.. نطير.. كل شيء فينا كان يطير..

من جدائلنا الطويلة.. من شرائطنا القبيحة.. أطراف (مرايلنا) الفضفاضة الرثّة المصممّة كثياب حمل..

كنا نركض بعنف.. عنف بلا حدود.. أكاد أتذكّر جيداً ألم كليتي ووسط بطني..

واندفاع الهواء في رئتي الجافتين.. وطعم الغبار في فمي ووخزه على ساقي.. وهما تتكشفان ركضاً.. ركضاً..

البنات يتهافتن وقتها على المدرسة.. وكنا نتهافت كفراشتي ضوء خائفتين خافتتين في مريولين رماديين، باتجاه منزلينا..

يرفع عمال البناء رؤوسهم مشدوهين لركضنا.. يصغر العالم ويركض معي.. يركض العالم في عقلي.. كان يركض..

وعيناي تزوغان خوفاً.. ركضاً.. تعباً.. وترقّباً للزمن وهو ينظر إلينا مشدوهاً أو ربما بإعجاب أو ربما باستغراب المهم أن كل العالم كان مشدوهاً وهو يرانا نطير.. حتى اقتربنا من باب منزلنا ودفعت الباب الحديدي لأجده مواربا ودخلت..

وبخفة سحبت كيس الخياطة وركضت للخارج حيث لحقني صراخ أمي ودعاؤها الساخن المرير عمّا فعلت.. وما الذي أتى بي؟! وكيف؟!

(نسيت أغراض التفصيل بروح قبل يسكرون باب المدرسة)!

خرجت وأنا أرى (منى) تتسلل من باب منزلهم.. ترمقني بنظرة فيها معنى لا أعرفه..

لكنني أدركته على كل حال وانطلقنا نركض تارة أخرى..

لست أدري لحظتها كيف أحسست بأني أعتى مجرم فوق الأرض.. ولست أنسى كيف أني كنت فخورة بأني كنت كذلك.. على الأقل لحظتها..

طعم أن تكون خاطئاً دون أن يراك أحد.. أو دون أن يضربك أحد أو يسحب شعرك..

طعم لا نهائي من اللذة..

ما يمنعنا من الخطأ هو الخوف.. وحين تهزم الخوف لا نحس بطعم الخطايا..

وأجمل لحظة يمكنك فيها أن تهزم الخوف هي لحظة أن تكون مستضعفاً.. ضعيفاً..

أنثى.. في الحادية عشرة من عمرك.. في صباح يوم قائظ.. وقد نسيت أدواتٍ لمادةٍ يدرّسها كائن مخلوق من القبح والإرهاب والسادية اسمه معلمة التفصيل..

رمقنا فرّاش المدرسة وهو يزفر بخيزرانته، بغيظ مكبوت، بحقد عميق، بشيء في عيون الرجال لم نعرفه إلا حين كبرنا.. ونحن نخطو خطوة أخرى كاد يصحبها شيء من البلل في ملابسي الداخلية..

المعلّمة المناوبة ترمقنا باستغراب وقد دخلنا من دون حقائب.. بادلناها نظرتها ووجدنا (شناطنا) ترقد في وداعة تنتظرنا كقطط سوداء تقاسمنا ألم الطفولة.. ألم الأنوثة.. ألم مدرسة بنات في الرياض.

لم نبتسم.. لم نضحك.. لم نفرح.. لم نمسح حتى آثار الغبار من عيوننا أو آثار جفاف أفواهنا من أطراف شفاهنا.. مكثنا صامتتين ونحن نتجه للساحة ونجلس..

جاءنا صياح المراقبة وهي تحشر الطالبات بمسطرتها باتجاه الساحة الداخلية، تحاشينا عيون بعضنا واتجهنا للطابور والجرس يقرع.. وقد حضرنا قبله بخمس دقائق أو أكثر..

تبادلنا نظرات فيها معنى لا نعرفه..

الرياض

يوليو - ٢٠٠٩

زرعة

13

(حقيقية)

لا شيء يضاهي ملل دقائق الانتظار في الساحة الخلفية، حيث تتململ المعلمة المناوبة وهي تهشّنا لنتجمع باتجاه البوابة. الهواء في لفحات كتلك يتراقص أمام عينيك كما لو أنه يغلي ويتقافز فوق إبريق شاي.

بالنسبة لزرعة كان الأمر أكثر من عادي، إذ لديها اليوم بأكمله لتنتظر السيارة التي تأخذها، حيث تسكن في الفيصلية، كانت تقرأ القرآن الكريم في الحقيقة، وفي حقيبتها كتاب عن أوصاف أهل الجنة كما أخبرتني، ولأني أتصوّر جلدها الأسود المصقول متعوّداً على قساوة الشمس وطعم العرق، فلم يشكل الهواء السمومي لها أكثر من تكييف لجلودنا المتعرقة الملفوفة بالمرايل الرمادية.

تعوّدت أن تجلس ورجلها فوق الأخرى على كراسي الساحة الخارجية، وهذا ليس افتعالاً للأناقة، إنها متديّنة وبعيدة كل البعد عن حركات البنات الأنيقات اللاتي تقصصن شعورهن كالأولاد.. ويرفعن أصواتهن فوق أصوات المعلمات. كما أنها ليست بحاجة إلى ما يعبّر عنها أكثر من ابتسامتها التي أعرف كم تصطف خلفها تنهيدات كثيرة تقاومها في عمرها الذي بلغ السادسة عشرة.

زرعة بنت تعيش في الفيصلية، وليس في الملز مثلي، ولذلك تشكل السادسة عشرة فارقاً كبيراً جداً بين عالمينا المختلفين. عمري أنا بلغ السادسة عشرة ومازالت أمي تراني صغيرة على أن تكون لي غرفة خاصة، بينما بلغ عمر زرعة السادسة عشرة ولم تتزوج أو تخطب بعد، وهذا وضع خطير كما تراه وتشتكيه لي بدموعها؛ لأنها فوق ذلك فأمها مطلّقة وتعيش في بيت أبيها مع زوجة وأخوة أحدهم متزوج من امرأة لا تصلي، والوضع في بيتهم جداً مزعج لأنهم يكرهون تديّنها ونصيحتها المتواصلة لهم بالصلاة وترك المنكرات.

طالما كانت تبلع ألمها خلف ضحكات طفولية مبهّرة بالمحلب ودهن العود الرخيص ونور الإيمان، كنت حين أراها يخيل لي أن السعادة تحوّلت إلى كائن هو هي، بلونها الأسود وشعرها (الأكرت المعقّص) بصعوبة تجعله محيّر الإبهار، مهما ظهر لنا أنه غير جميل.. كنا نحبها لأنها سعيدة، أنا شخصياً كنت أحبها لأنها سعيدة، لأنها لا تعرف إلا الضحك والابتسام رغم كل تأوه. رغم الاحتقار الذي تكنّه لها نظرات الفتيات الجميلات، رغم شفقة المعلّمات وحيرتهن بين خفّة ظلّها الحقيقية وشقاوتها، وبين براءتها وتديّنها غير المفتعل.

كانت سعيدة رغم أنها تعرف أنها أقل في عيون الكل، رغم أنها سفلية في عقل الكل المترفع المصعّر الجبين..

المهم أنه أتى يوم غيّر ذلك كلّه، وجعل الابتسامة اللذيذة التي لا تموت من وجهها البريء تحل محلّها دمعة زجاجية جبّارة، لا لم تكن زجاجية والحق يقال، بل كانت حمراء بلون عينيها المحتقنتين بالدم وبلون ألمها الذي نضج وأصبح حقداً، حتى زرعة يمكنها أن تحقد حين يستلزم الأمر.. وما حدث كان يستلزم حقداً رهيباً

- قذفوني في شرفي!

قالتها وزفرت دمعة حمراء أخرى، كانت ترجوني لأستمع.. وكنت في الحقيقة أحدق في وجهها أحاول استيعاب أنها كانت تبكي بعين حمراء، وأن هناك ألماً قد تجاوز زرعة

ولم تقدر على حبسه هذه المرة، فتأوهت آهة طويلة بلون الدم والزبد يتجمع على شفتيها وهي تمسحه:

– المديرة نادتني اليوم.. أوقفوني عند الإدارة يوماً كاملاً.. (يبغوا أبويه يجي عشان يقول لهم مين اللي يجيبني كل يوم)!!

كنت أعرف أن من يوصلها من وإلى الفيصلية كان (ابن جيران) ما، تدفع له نقوداً قليلة ليأتي بجمس أحمر مهترئ وتركب هي في المرتبة بعد الخلفية (إمعاناً في العفة والتقوى)، فوالدها لا يملك سيارة، وأخوها الفاجر لا يصلي، وحافلة مدرسة الملز العريقة لا تدخل حي الفيصلية المنسي المترع بالخطايا..

تابعت وهي تسابق الشهقات كي لا يخنقها الحنق والقهر:

(ولد جيراننا هو اللي كان يجيبنا أنا والبنات في المتوسط، لما كلهم سابوا المدرسة أنا ظليت لحالي.. إش أسوي ما عنده محرم)!!

كنت أدير المسألة في عقلي، وأحسب المسافة بين عالمي وعالمها.. وأقيس ما يمكن أن أفعل لو قالت لي المديرة ما قالته لها.. أعرف فوق ذلك أنها ليست فقط ترتدي قفازين أسودين وشرّاباً سميكاً.. ولكنها زرعة وكفى.

إنها تحمل كتاب أوصاف الجنة باستمرار.. ولا تمل من إعادة قراءته، كما هي تختم القرآن الكريم كل شهر..

– وماذا قال أبوكِ للمديرة؟ وماذا سيفعلون بك؟

شهقت وهي تتطلع في عيني برجاء ساخن:

– (أبويا داري عن نفسه ولا عنّي عشان يكلم المديرة؟ وأمي تقول لي اتجوّزي وبطلي مدرسة.. كفاية أخذتي كفاءة).

– إذن فهم لا يريدونك أن تدخلي الجامعة؟

لحظتها خيّل لي أن دمعتها تقفز باتجاهي تصفعني موبخة حاقدة:

(جامعة إيش ولا إيش.. أنا في ورطتي الحين مين يوديني ويجيبني؟ إش بيسووا فيّه؟

قلت لهم أبويا داري أني أجي مع ولد الجيران وراضي.. قالت لي المديرة حرام خلوة)!!
وقتها تذكّرت كلام المديرة وهي تصرخ في وجهي حين كان شقيقي يتأخر في الحضور لاستلامي من المدرسة:
- ما دام ولي أمرك وقّع موافقة إنك تدرسين هو يتكفل يوديك ويجيبك حسب الدوام، وإلا اركبي (الباص) أو لا تحضري للمدرسة!
و(الباص) لم يكن يذهب لحي الفيصلية، والفيصلية وقتها لم يكن فيها مدرسة، قالت لها المديرة بكل بساطة:
- انقلي مدرسة ثانية!
والأمور بسيطة جداً عند الناس الذين لا يقاسون، الناس الذين نتعوذ بالله من الجن الأزرق الذي يسكنهم، وتحمد الله على نعمة الإسلام والأمن والأمان والراتب العالي وخدمة الوطن أربعين سنة والحمل كل تسعة أشهر وإجازة الأمومة.
كانت تتجمع هذه الأشياء في فمي (وربما في فمها) ثم أبصقها تقززّا وأنا أتذكر كم هو سهل أن تسخر من ألم من لا يملك إلا أن يتألم.
من الغد لم تحضر زرعة، وبعده لم تحضر.. ثم حضرت وأخبرتني أن المديرة هددتها لو ركبت السيارة مع ابن الجيران أنها ستبلغ الهيئة وتفصلها من المدرسة تماماً:
- كانت تتحدث كما لو كنت قد ارتكبت شيئاً حراماً، كما لو كنت قد ضاجعته أمام الناس، حسبنا الله ونعم الوكيل!
وفتحت لها محضراً ورفعته كما هددتها للرئاسة، وحين يصل الأمر إلى الرئاسة فإن البائسين مثل زرعة لا يملكون إلا الانسحاب.
أذكر أنها قاتلت حتى اختبرت الاختبار النهائي في الصف الأول الثانوي، وأنها صارت تأتي مع فتاة من الفيصلية وأخيها، وأنها دعت ربّها في ليلة سوداء حافلة بظلم الفقر ودخان شيشة الوالد وصراخ الأخ وزوجته الفاجرة، فأتى من الغد عريس متدين لينتشلها من بركة الخوف والتوجّس والقذف الذي ملأتها به المديرة والمراقبات

والمدرّسات المناوبات والفرّاش، وكل ذلك العالم السفلي القبيح الذي ودعته.. ونقش الحنّاء في يديها يشع بالفرحة والانفراج..

(طز فيهم وفي شهادتهم.. هي راح توكّلني عيش يعني)؟!!

كانت تقولها وهي تؤمئ بحقيبتها بلا مبالاة.. وتنظر للسماء وفي فمها ابتسامة رطبة ورائحة حناء.

بالنسبة لي لم أفرح كثيراً وأنا أعرف أنها ستترك المدرسة وتتزوج، وتحقق حلماً بالنسبة لها كان كل شيء.

رجل تتشبث به كي لا تغرق في وحل كبير باتساع الآهات التي تسكن أحياء الفقراء والمنبوذين، ومن كتب عليهم المجتمع لعنة لا تشفيها كل التعاويذ..

كنت أتمنى لو رافقتني زرعة بإيمانها وابتسامتها إلى الجامعة، لو درستْ وعملتْ وأصبحتْ شيئاً أكبر من أم متربّعة.. كما كانت تسخر بنفسها فيما بعد..

لكنني أعرف ضريبة أن يكبر كائن بئيس وينتفض في مناطق منبوذة ملعونة في الرياض.

وتأبى الحياة في كل مرة إلا أن تتوحّش وتبرز مخالب وزفيراً كريهاً يطرد الأشياء الجميلة..

يطرد زرعة، وأوصاف الجنة، والحوريات، وحشيش الزعفران، ومجامر الألوّة، والمحلب، والحناء، وما شابهها.. ويترك فراغاً لا تملؤه إلا الذكريات التي بلون دموع حمراء تزف في حفلة استضعاف..

الرياض

فبراير - ٢٠٠٩

عسّاف..

14

المنظر يبدو كئيباً.. والبيت يتشح بسواد لا نهائي.. وأيام العزاء لا بد لها أن تكون كذلك، موحشة، ثقيلة، زائدة وصخرية، ولا يسمح فيها حتى بالابتسام..

كان عسّاف يراقب من خلف الباب ما تعنيه فكرة أن أخته الكبرى قد اختفت من الوجود.. أنها قد ذهبت للجنة كما يردد الكبار..

لم يكن يفهم معنى الدمع والعويل الذي تطلقه النساء في مجلس الحريم الذي يغص بأفواج تدخل وتتبدل وتغادر الكراسي.. وتحلف على بعضها البعض بالجلوس.. هو لا يفهم شيئاً من هذه الحركة السوداء الدائبة..

وأخيراً وجد عسّاف نفسه يندمج في هذا الجو الأسود.. ويبكي بصوت رجولي صاخب يحتج على منظر العباءات المتكوّمة.. وحفلة الحزن في الدور الأرضي..

لم يفهم أكثر لمَ تنهره أخته الصغرى ليغيب ويصعد للغرفة.. لا يفهم أكثر لمَ تشهق النساء بالمفاجأة والنكير وتمتد أيديهن الطويلة لجذب أطراف الشيل والعباءات حين يرين نظراته القلقة البلهاء من خلف الباب؟

أخيراً جذبه أخوه الأكبر لمجلس الرجال.. جلس عشر دقائق ومن ثم أخذه لغرفته الأبدية التي قبع فيها محبوساً مغيباً طيلة سنين..

****

حين دق جدران غرفته بعنف وبكى طويلاً (جوعاً وعطشاً ووحدة) ليفتحوا له قفل الباب وهو يصرخ باسم حصة، لم يكن يعرف أنه سيكون الخميس الوحيد منذ سنوات طويلة تلك التي ينزل فيها ويبحث عنها ثم لا يجدها..

لم يجدها في أركان المنزل الجديدة على ذاكرته كل مرة، في المطبخ الذي لا يتذكر معالمه، في الحوش وهو يصرخ مطالباً بها وسط عويل أخواته ونهر إخوته وهم يجرونه كالخروف للغرفة مرة أخرى..

- (ما نبيه يفشلنا قدام الناس.. خذوه فوق وصكوا عليه بس لابو هالحالة!

- طيب وصراخه وطقه على الباب، وش يقولون عنا إذا سمعوا هالصجة)؟

إنه يومها، يوم مجيئها الذي لم ينقطع أسبوعاً واحداً منذ ماتت الأم منذ إحدى عشرة سنة، وأصبح يوماً يودعونها فيه ويتَّشحون بالسواد والملابس الكئيبة والدموع والدعوات.. لأي شيء يحصل كل هذا وكيف؟

إنها أسئلة ربما ليست بحجم عقله الصغير الذي لم يعرف من الدنيا الكثير، جدران الغرفة البيضاء الكريهة المكررة بعدد ثواني حياته.. أغلفة المجلات المصورة وقصص الأطفال التي لا تختلف عن بعضها..

التلفاز الصغير المعلق في السقف بفيديو يعرض أشرطة أطفال لم تتغير منذ سنين..

وحده وجه الأخت الطيبة الحنون فقط هو ما كان جديداً وأخضرَ كل مرة، يداها اللتان تطعمان بابتسامة ورحمة لا حدود لها، وكلماتها القصيرة وصمتها الباسم.. هي الشيء الخاص الذي ينتظره أيام الأسبوع، يبقى بانتظاره ويحيا ليلاقيه..

وهاهو الآن يبدو كثيراً هذا الشيء الوحيد، يهرب منه إلى حيث الفردوس المعشب الأخضر، ويتركه في بقعته الأرضية الجافة المربعة البيضاء..

****

لا يتذكر تحديداً متى قرر إخوته وأخواته أن يحبسوه في غرفة علوية كي لا يكسّر ولا يؤذي بعد وفاة أمه، يتذكر فقط وجوه الممرضين الفلبينيين وهي تحقنه بكميات من الأدوية تجعله ينام طويلاً، ومن ثم يصحو وفي فمه مرارة طعم كريه وجفاف، ودوار، وفي معدته ألم لا يفهمه؛ فيبكي بصوته الرجولي الخشن الذي نما وتطور أكثر مما تطور عقله الصعب..

يتذكر وجوهاً مشعرة لشيوخ ينفثون ويضربون رأسه بعض الأحيان فيذعر ويحاول الهرب وهو لا يعرف لأي شيء يُضرب.. ويخاطبونه بضمير الأنثى ويطلبون منه أن يخرج، تكتم مثل هذه الذكريات الموحشة أنفاسه فيرفع صوتاً خشناً مزعجاً ببكاء يستغيث انفراجاً..

يتلفت الإخوة الضجرون دائماً، ثم يلتقط أحدهم يده ليأخذه إلى الغرفة مرة أخرى وهو يبسمل ويتعوّذ وينفث خائفاً من شيطانة تختبئ خلف هذه العيون البلهاء القلقة، وتطلق أصواتاً مفعمة بالشهوة والرغبات.

الشيطانة المسكينة لم تغادر جسده بعد، ورغم ذلك فإن عقله الصغير كان يستوعب كم هو ثقيل وبارد وطويل وضخم الجثة بحضرة الإخوة والأخوات، خصوصاً بعدما بدأت لحيته تغزو وجهه وتحكه وتغرز أطرافها المدببة في عنقه حين تطول كل أسبوع، وحين يتضايق منها ويحاول نزعها أو حكّها توجعه أكثر.. ولا يدري كيف يتخلص من كل ذلك، ولكنه يرتاح جداً ويبدو مبتهجاً حين تحلقها حصة وتغسل رأسه الدهني وتجعله يحس ببرودة الحياة ولذتها وهي تتحدث..

عسّاف لم يعد يرى ذلك كله ولم يعد يفهم لمَ لا يراه بعد، ولا تتركه الأيام يفهم، ولا وقت عند أحد من إخوته أو أخواته لأن يجعله يفهم..

****

حين غادرت أمه إلى الجنّة قبل سنين قبع في الغرفة يومين من أيام العزاء، يبكي ويتضوّر ويقرع الباب إلى أن ضجر أحد الإخوة وهرع للدور الفوقي ليهجم عليه بالعقال تعبيراً

عن الحزن بفقد الفقيدة.. الذي لا ينقصه صراخ الجنيّة العاشقة المشتهية وتلمّظها الذي لا ينقضي..

حتى الشغالة حين أرادت إطعامه ورقت لعويله منعت لأنها يخاف عليها منه، أو عليه منها..

أخته الصغرى ترفض مجرد الاقتراب من غرفته، والآخرون يكرههم ويبدأ في الصراخ والذعر حين يراهم ويقولون إنها الجنية تنفر من وجوه الرجال الإنس وتخشى قراءتهم..

بقي هكذا يومين حتى فتحوا له الباب وقد استفرغ العويل والخوف قواه..

وجدوه وقد اتسخت به الغرفة واصطبغ لون جدرانها البيض بلون فضلاته ورائحتها في يديه ودموعه الجارية تطلب طعاماً وتطلب أماً.. بقيت الغرفة هكذا رغم كل ما فعلته حصة والشغالة لتنظيفها فيما بعد وهي تهمس لنفسها:

- (يا الله لا تواخذنا ولا تسخط علينا.. يا ربي لا تولينا من لا يرحمنا)..

أوكلوا به شغالة المنزل ومن ثم منعوها خوفاً من أن تخاطب شيطانته أو تستغل رجولته المتطفلة على عقل أبله، وجاؤوا فيما بعد بسائق ليغسله وينهره ويلقمه كالبطة على عجل ويغلق باب الغرفة عليه ويأمره أن يشاهد أفلام الكرتون مراراً وتكراراً..

وحين كان يبكي أو يصرخ احتجاجاً – كعادته - كان السائق ينهره بشدة وأحياناً يضربه..

في وسط هذا الزحام الجحيمي الناهر الآمر تبزغ حصة كفجر أسبوعي.. تهرع إليه ساعته البيولوجية بلا وعي فيستيقظ بشوشاً وضحكة صباحية تتقافز فوق وجهه البريء، يظل يضرب الباب ويهتف ببلاهة فرحة:

- حصة.. حصة.. حصة..

إلى ما شاء الله وإلى أن يدور مفتاح الغرفة من الخارج ويظهر وجهها الخلودي المتشكّل كقطعة قمر على وجه الاكتمال، ببثور وكلف تشبه ذلك العالق في وجه القمر.. ورغم أنه

لم ير القمر إلا لماما حين ترافقه في ليالي الصيف إلى سطح المنزل، إلا أنه لا يكف على الحملقة في وجهها والحملقة فيه مرة أخرى وشيء في قلبه الأبله يقول إنهما واحد في اثنين، يتشابهان ويبعثان البهجة ويشعان شيئاً أبيض مشوباً برمادي جميل حزين..

وإلى قبل موتها الفجائي في الحادث، كانت تحاول أن تنطق لسانه المعوج بالآيات، وتمسك يده الكبيرة بالقلم لتخط عشوائيات تنتهي بفرح صارخ، تجعله يصلّي جوارها وأخواتها يحذرنها مما يمكن أن يفعله الـ(بسم الله الرحمن الرحيم) داخله، وإخوتها يبدون خوفاً صريحاً من حجمه الضخم وبلاهته على سلامتها، وأحياناً يتهامسون بينهم أنها قد صادقت جنيّة عساف وصالحتها، وسيناريوهات طويلة عاشتها سنين طوال وهي تدلق عليه من الحب الذي وهبها إياه نور الله في قلبها، ولم يكن ثمة عطشان يتلقى هذه النفحات سوى شقيقها..

حين مر الأسبوعان والثلاثة والأربعة أشهر بعد وفاتها وخواء الغرفة يزداد والفراغ يتمدد ويصبح أكثر إرعاباً، أصبح صياح عساف لا يطاق، وطرق الجيران الباب خوفاً من أن يكون الولد مريضاً وبحاجة إلى مستشفى.

قرر الأخ الكبير تنظيف البيت من عسّاف والذكريات المغبرّة في غرف السطوح المنسية الحارّة.. أمر الشغالات أن تجهزن الولد لرحلة نهائية إلى دار نسيان اجتماعي في حافة الرياض..

وحين حان وقت الرحيل كان تذمّره أوجع، وصياحه الرجولي باسم فقيدته يبدو كصياح خروف يساق إلى الموت وهم ينظرون..

راقب الجيران الإخوة الثلاثة يتعاونون في رفع الكائن الأكبر منهم حجماً إلى المرتبة الخلفية من السيارة، ذرفت دموعهم ونصحهم أبو الجيران بأن يكونوا ألين وألطف.. وأن الله يراقب ويمهل ولا يهمل..

تستمر استعاذاتهم وتهديداتهم لشيطانة عسّاف وهي ترفس وتغطي وجهاً يسيل بالذعر والدمع والذهول من حجم الغدر والحقد المقذوف من عيون وألسنة الإخوة على عالم

الجن الدخلاء.

وإلى أن استيقظ من حجم جرعات مخدر كبيرة حقنت فيه، كان وجه حصة الخلودي بابتسامة حزينة رمادية فيها كلف تطل عليه من شق السماء الكحلية.. تنحني عليه وتقترب حتى ليكاد يلمسها ويتشبث بها حتى لا تذهب لأي مكان بعيد عن المنزل الكالح الذي لم يره بعد اليوم..

يصبح في الدار وحيداً يترقّب الليل من نافذة صغيرة.. يظهر منها وجه حصة جامداً بابتسامة مائلة ثابتة..

تنثر نوراً أبيض حزيناً يتغلغل في أرجاء عقله الصغير ليطير..

يطير إليها، حيث لا شياطين ولا وجوه كالحة.. ولا شيء إلا بياض باتساع الزمان.. كل الزمان..

الفهرس

أوجاع الدمى	٥
القواطي..	٧
خشير العقل..	١٣
الصقرة..	١٩
نفيدكم علماً!	٣٥
أوجاع الدمى..	٤٣
القبيحات!	٥١
من خطايا الآولين	٦٧
السرطان	٧٥
البنغالي..	٨٥
غرفة الفئران	٩٣
رجل لا يحب..	١٠١
كيسة التفصيل	١٠٧
زرعة	١١٣
عسّاف..	١٢١